جون شتاينبك

اللؤلؤة

رواية

ترجمة
محمد الشفقي

تقديم ومراجعة
علي محمود ماهر

الكتاب: اللؤلؤة (رواية)

الكاتب: جون شتاينبك

ترجمة: محمد الشفقي

تقديم ومراجعة: علي محمود ماهر

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣
APA
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

شتاينبك، جون
اللؤلؤة (رواية)/ جون شتاينبك، ترجمة: محمد الشفقي، تقديم ومراجعة: علي محمود ماهر
–الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٢٧ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٤ – ٧٥ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان		رقم الإيداع : ١١٨٨٣ / ٢٠٢٠

اللـؤلـؤة



لؤلؤة جون شتاينبك

ولد الروائي الأمريكي جون شتاينبك في السابع والعشرين من شهر فبراير عام ١٩٠٢، في مدينة ساليناس بولاية كاليفورنيا الأمريكية، امتزجت في عروقه الدماء الأيرلندية بالدماء الألمانية، وامتزجت في أدبه الرومانسية بالواقعية.

لم تكن أسرته ميسورة الحال فذاق مرارة الفقر في مطلع حياته، فقد كان مضطرا للعمل ليحصل على لقمة العيش، فاشتغل بالنجارة، والرسم، وعمل في المصانع، وتنقل بين أعمال ومهن كثيرة كلها شاقة كما كان حريصا على أن يراسل الصحف، درس علم الأحياء البحرية في جامعة ستانفورد لمدة عام (١٩١٩) لكنه لم يكمل دراسته رغم تفوقه، فقد اضطرته ظروفه المادية إلى ترك الجامعة والهرب من مدينته على متن باخرة محمّلة بالبضائع إلى سان فرانسيسكو، وهناك عمل في حقول الشعير والبنجر في إحدى المزارع، ومن هناك وفي كوخ بسيط بين الحقول بدأ مسيرته مع الكتابة، وعاد بعد ذلك بعامين إلى الجامعة، لكنه حوّل دراسته إلى اللغة والصحافة، فأتاح له ذلك الاستمرار في كتابة القصص ونظم القصائد، لكن هذه المرة أيضاً، ورغم تفوقه في دراسته،

ترك الجامعة قبل أن يحصل على شهادته، ونشر بعض مقالاته وقصصه القصيرة باسم مستعار قريب في إيقاعه من اسمه الحقيقي هو جون شتيرن، واستمر يوقع كتاباته بهذا الإسم حتى عام ١٩٢٩، حيث نشر روايته الأولى "كأس من ذهب" باسمه الحقيقي، بعدها هجر الحرف التي كان يقتات منها، وعاد إلى كاليفورنيا ليتفرغ للصحافة، مؤثرا الحياة في كوخ منعزل حتى نشر روايته "تورتيلا فلات" التي جذبت الأنظار إليه بقوة عام ١٩٣٥ وأعلنت عن بزوغ كاتب عظيم في سماء الأدب الأمريكي. وأعقبتها روايات "رجال وفئران " ١٩٣٧، ثم رائعته "عناقيد الغضب" في ١٩٣٩، و"شارع السردين المعلب"، و"اللؤلؤة"، و"شرق عدن" و"مراعي الفردوس" وغيرها مما كتبه في كوخه منعزل بكاليفورنيا، وصور فيها جانبا من حياته الشاقة وحياة المهمشين. وقد فازت روايته "عناقيد الغضب" بجائزة بوليتزر الأدبية عام ١٩٤٩ فحققت له شهرة طاغية، وبرغم شهرته ومكانته الأدبية، فقد تعرّض للاضطهاد والملاحقة خلال الحقبة المكّارثية بتهمة التعاطف والترويج للأفكار الشيوعية المناهضة لقيم الرأسمال الأمريكي، فأحرقت مؤلفاته، وأوقفت دور النشر التعامل معه، قبل أن يُعاد إليه اعتباره بعد سنوات.

وكان شتاينبك مُغرمًا بعبارة للفيلسوف رالف والدو إيميرسون (١٨٠٣– ١٨٨٢م) أوردها كثيرا في حواراته وفي رسائله يقول فيها: "الموهبة وحدها لا تصنع كاتبًا، يجب أن يكون هناك رجلٌ قويّ وراء أي

عمل يُكتَب".. وكانت هذه باختصار هي نظرة شتاينبِك لمسألة الكتابة. ويستطرد شتاينبِك ليشرحها قائلا: "كتبتُ عددًا كبيرًا من القصص، لكنني لا أزالُ أجهل آلية كتابة قصّة، لا أعرف إلا شيئًا واحدًا: أن أجرّب حظي وأواصل الكتابة". فهو ينتمي إلى نوع من الروائيين يومنون بأنّ الكتابة ليست لهوًا ولا ترفًا، بقدر ما هي وقود الحياة وحطب نارها، لذلك تواصلت أعماله، وفي عام ١٩٦٢ فاز بجائزة نوبل للآداب، وقد توفي بعدها بست سنوات في العشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٦٨، إثر أزمة قلبية داهمته ذات ليلة شتوية باردة وهو يكتب في منزله بمدينة نيويورك التي سكنها بعد مغادرته كاليفورنيا.

المتشائم

كان جون شتاينبك متشائما، وكان يرتاب في الكائن البشري، ربما كان ذلك من آثار الوطأة الشديدة لحياته القاسية قبل أن يكون نتاجا لفلسفة وفكر، وهو القائل "الإنسان هو الكائن الطفيلي الوحيد الذي ينصب مصيدته الخاصة ويقوم بوضع الطعم فيها ثم يخطو داخلها". تلك المقولة التي تجمع بين الأسى والسخرية تعبر تماما عن أفكاره، بقدر تعبيرها عن نظرته شديدة السوداوية إلى الكائن الإنساني الذي يدمر نفسه، وينصب الشراك لنفسه، ويلقي بنفسه إلى التهلكة، فلماذا كان شتاينبك مصرا على سوداويته تلك في مجمل أعماله؟ لماذا كان يردد دائما أن الإنسان وحش، أو أسوأ من الوحش؟ إنه يؤكد على فشل

الإنسان في الحياة من خلال الحروب التي يقيمها ضد أخيه الإنسان. والعنف الذي يمارسه ضد نفسه وضد الآخرين، كما في رواية "اللؤلؤة" التي يظهر فيها العنف بقوة، العنف من أجل المال الذي يبعد الإنسان عن إنسانيته.

في اللؤلؤة يسكن طغيان المدينة، متخذاً من بيوت الحجر والجص مرتعاً طيباً لعيشه، وفي الساحل تعيش مخلوقات بشرية هامشية في أكواخ من الخشب، وهذه المخلوقات تعيش على الصيد وتقدم لأسيادها في المدينة ما تستخرجه من البحر، مقابل قوت يومها، لم يجرؤ أحد في يوم ما أن يقارن نفسه بأهل المدينة، ويبدأ الروائي روايته اللؤلؤة المنشورة في عام ١٩٤٧، بهذه الفقرة: "في البلدة، يحكون قصة لؤلؤة عظيمة، كيف وُجدت، وكيف فُقدت بعد ذلك، يحكون عن كينو الصياد، وعن زوجته جوانا، وعن رضيعهم كوبوتيتو، ولأن القصة حُكيت مراراً وتكراراً، فقد أصبحت جزءاً من ذاكرة كل من سمعها".

هكذا يمهد الكاتب لروايته القصيرة – وهي أقصر أعماله بشكل عام – بما يشي بأنه كتبها كموعظة، وبأنه يحملها الكثير من افكاره وفلسفته في الحياة، هي تتحدث عن عائلة مكسيكية تعيش في بلدة صغيرة اسمها لاباز، كتبها تحت ضغط متأثراً بتحليلات وفلسفة عالم النفس كارل يونج في الطمع البشري وانغماسه في القشور المادية للحياة، ذلك أنّ الصيّاد كينو يصحو ذات صباح، على وقع حلم مبهر،

يراقب كوخه الصغير، وزوجته جوانا وابنه كويوتيتو، حيث يغطّان في نوم عميق، تدفعه أحلامه إلى الذهاب مبكرا إلى العمل، يجد نفسه مشحوناً بطاقة غير مألوفة، تشاركه الطبيعة المحيطة به حلمه الجميل، كأنّها تنصب له فخّاً.

اللؤلؤة

يجسد شتاينبك في روايته كيفيّة ضياع الأحلام، وتحوّلها إلى كوابيس تودي بسعادة بل وبحياة الحالمين، عبر حكاية صيّاد مكسيكيّ فقير اسمه كينو يعثر على أكبر لؤلؤة في العالم، ولكنّه بدلاً من أن يصبح غنيا وسعيدا، يفقد السعادة، ويكاد يفقد كلّ شيء، حيث يلدغ عقرب ابنه كويوتيتو، ورغم تدارك جوانا السريع، وامتصاصها السمّ الذي دخل جسم الطفل، لكنّه تاه في خشيته على ابنه، طالب بإحضار الطبيب، لكن الطبيب لا يعالج الفقراء و لن يأتي إليهم في كوخهم، فيسارع هو وزوجته إلى منزل الطبيب، وهناك يرفض الطبيب علاج ابنه، بعد أن يعلم من خادمه أنّه لا يملك نقوداً.

يكون ردّ فعل كينو عنيفاً، يضرب الباب بقبضته، يدمي يده، وسط نكسة صادمة له ولمن حوله. يذهب بأسرته إلى الخليج، وهناك تحضّر جوانا بعض العقاقير، تضعها على موضع اللدغة، ويظنّان أنّ الطفل سيتحسن حاله وسيكون بخير، ثمّ يخرج كيو إلى صيده، عندها تدعو جوانا أن يحظى بصيد لؤلؤة كبيرة لتتمكّن من علاج ابنها.

تستجيب السماء لدعاء جوانا، فيعثر كينو على لؤلؤة كبيرة، يصرخ هو وزوجته فرحين بصيده، يلتفّ حوله الصيّادون، يشيع الخبر في البلدة، ويصبح كينو موضع حسد الجميع وغيرتهم، يصرّح بأحلامه التي لم يكن يجرؤ على التصريح بها، وتصير تلك اللؤلؤة نقطة تحوّل في حياته، يسارع القس إلى تقديم مساعداته وتبريكاته، مدفوعاً بتوقعات لهما سيجود به كيتو على الكنيسة بعد أن يبيع لؤلؤته، كما يبادر الطبيب الذي كان قد رفض مداواة ابنه إلى كوخه ويعتذر عن سوء تصرّف خادمه، ويبرّر عدم وجوده بأكاذيب، تصبح اللؤلؤة الشغل الشاغل للسكّان. يخبّئ اللؤلؤة في الكوخ، ويسهر على حراستها. وفي الصباح، يضعها في حضنه، ويغادر، يتبعه موكب من الأهالي، يدفعهم الحسد، ويغريهم الغنى الذي سينعم به كما يكون التجّار مستعدّين لاقتناص اللؤلؤة التي بهرتهم بأي ثمن.

يقرّر كينو السفر إلى العاصمة ليبيع اللؤلؤة بالثمن الذي تستحقّ، لكنّه لا يتمكّن من السفر، إذ يتعرّض لسطو من ملثّمين، يتمكن من قتل أحدهم، ويحتفظ باللؤلؤة، يحاول مع زوجته إخفاء الجثّة، وحين يعود إلى كوخه يجده محترقا، ويجد قاربه أيضاً محطما، ويجد نفسه محاصراً فيختبئ في منزل أخيه، يخطّط للهرب من البلدة، وفي الليل يخرج، فيكتشف أنّ هناك مَن يقتفي أثره. ويجد نفسه مضطرا لقتل آخرين في سبيل الاحتفاظ باللؤلؤة، عندئذ يتأكد من استحالة تغيير مصيره. فيسيطر

عليه الرعب ويعود إلى البلدة بعد يلقي باللؤلؤة في مياه الخليج، ليتخلص من أحلامه دون أن يتمكن من العودة إلى بساطته السابقة، وتكون حكايته ملحمة البلدة كما تقول الفقرة الافتتاحية في الرواية.

وهكذا يقدم شتاينبك اللؤلؤة كمرآة تعكس وجوه الناس، كنا تعكس القبح الذي يختبئ في دواخل نفوسهم، كذلك يكشف شتاينبك وهم البحث عن السعادة، وضعف الفرد الذي يجد نفسه في مواجهة الواقع المتوحش، حيث يتخلّي الآخرين عنه، وقد تكون تلك المأساة الفرديّة التي تحكيها الرواية دعوة للتكاتف الجماعيّ الذي تستحيل من دونه الأحلام وتصبح كوابيس ويؤكّد في خاتمة الرواية أنّ السعادة هي اللؤلؤة الكبرى المفقودة التي يظلّ الإنسان يبحث محموم عنها دون أن يعثر عليها، لأنّه ما إن يظنّ نفسه قد بلغها، فإنّها تتسرب ضائعة من بين يديه.

علي محمود ماهر



الفصل الأول

استيقظ كينو والدنيا غارقة في الظلام ظلام.. كانت النجوم لا تزال تلمع، والصبح ليرسم لوناً شاحباً من الضياء عند الأفق ناحية الشرق، وقد مضى على الديكة بعض الوقت وهي تؤذن، أما الخنازير فقد استيقظت مبكرة لتعبث في أغصان الأشجار، وتقلب قطع الأخشاب الصغيرة عسى أن تعثر على شيء فاتها أن تلتهمه. وخارج البيت المصنوع من الأغصان، كانت الطيور الصغيرة تشقشق وتخفق بأجنحتها.

فتح كينو عينيه، ونظر أول ما نظر إلى المربع الذي أخذ الضوء يزداد فيه شيئاً فشيئاً. وهو باب البيت. ثم نظر بعد ذلك إلى الصندوق المعلق الذي ينام فيه كويو تيتو. وأخيراً أدار رأسه ناحية جوانا، زوجته، التي كانت ترقد بجانبه فوق الحصير وقد التف دثار رأسها الأزرق حول أنفها ونهديها حول ظهرها الصغير. كانت عيناً جوانا مفتوحتين أيضاً، لا يذكر كينو أبداً أنه رآهما مقفلتين كلما استيقظ.. كانت نجوم صغيرة تنعكس في عينيها السوداوين، وكانت تتطلع إليه كما تعودت دائماً عندما يستيقظ.

وسمع كينو صوت أمواج الصباح وهي ترتطم بالشاطئ، فأغمض عينيه لينصت إلى موسيقى الموج الساحر.. ربما كان هو الشخص الوحيد

الذي يفعل ذلك، وربما كان جميع الناس حوله يفعلون ما يفعل، في الماضي كان أبناء جنسه يصنعون الأغاني الكبرى، ومن أجل هذا كان كل ما يرونه أو يحسون به أو يفعلونه أو يسمعونه يتحول إلى أغنية. حدث هذا منذ زمن طويل. أما الأغاني فظلت باقية، وكان كينو يعرف هذه الأغاني، ولكن لم تكن هناك أغان جديدة تضاف إليها، وليس معنى هذا عدم وجود أغان فردية، فقد كانت هناك، في تلك اللحظة، أغنية في رأس كينو، أغنية رائقة ناعمة، ولو استطاع أن يتحدث عنها لسماها "أغنية الأسرة".

كانت ملاءته فوق أنفه يحتمي بها من الهواء الرطب المؤذي وطرفت عيناه عندما سمع حفيفاً بجانبه فقد كانت جوانا تهم بمغادرة فراشها في هدوء وسارت على قدميها الصلبتين العاريتين متجهة نحو الصندوق المعلق الذي ينام فيه كويوتيتو وانحنت فوقه وأدخلت اعلي نفسه السكينة بكلمة صغيرة وتطلع إليها كوبونيتو لحظة ثم أغمض عينيه واستغرق في النوم مرة أخرى.

اتجهت جوانا إلى فجوة النار وأخرجت قطعة من الفحم وأخذت تنفع فيها حتى اشتعلت جذوتها. وفي نفس الوقت أخذت تلقى بقطع صغيرة من خشب الشجيرات فوقها.

ونهض كينو ولف ملاءته حول رأسه وأذنيه وكتفيه. وأدخل قدميه في – الصندل – وخرج يرقب الفجر.

وعندما صار خارج البيت جلس القرفصاء وجمع أطراف الملاءة حول ركبتيه. ورأى سحب الخليج الصغيرة وهي تتوهج عالياً في الفضاء.

واقتربت منه عنزة، وأخرجت من أنفها صوتاً في وجهه، وأخذت تحملق فيه بعينيها الباردتين الصفراوين. ومن خلفه ارتفعت السنة النار التي أوقدتها جوانا، وصعد منها الدخان، وتساقطت خطوط من الضوء على الأرض من خلال فتحات البيت المصنوع من الأغصان، ورسمت النار مربعة متأرجحاً من النور خارج الباب. وفي صخب، دلفت من الباب فراشة تأخرت عن الركب، باحثة عن النار، والآن، انسابت أغنية الأسرة من خلف كينو. وكانت الرحى التي تديرها جوانا لطحن الذرة التي تصنع منها فطائر الصباح بمثابة إيقاع لأغنية الأسرة.

ها هو الفجر ينطلق مسرعاً .. لمحة من ضياء أول الأمر، ثم بريق ثم نور، وأخيراً بركان من النار عندما خرجت الشمس من وراء الخليج. ونظر كينو إلى الأرض ليحمي عينيه من الوهج. وصار في مقدوره أن يسمع صوت يد زوجته وهي تسوي فطائر الذرة داخل البيت، ورائحتها العميقة وهي تنضج على اللوح. وكانت النمال مشغولة. وهي تسير فوق الأرض .. نمال سوداء ضخمة– أجسادها تلمع، ونمال صغيرة مغبرة، سريعة. واتخذ كينو موقف الإله الذي يرقب الأشياء من بعيد، بينما كانت نملة مغيرة تحاول، في جنون أن تفلت من فخ الرمل الذي حفرته لها نملة كبيرة. واقترب منه كلب هزيل خجول، وبعد كلمة هادئة من كينو، ربض على الأرض ووضع ذيله بعناية فوق أقدامه، بينما أسند ذقنه، في حرص، على الكومة. كان كلباً أسود. وبدلاً من الحاجبين كانت هناك نقط صفراء بلون الذهب حول عينيه.

كان صباحاً مثل كل صباح سبقه ولكنه كان – أيضاً – صباحاً فريداً يتميز عن كل صباح.

وسمع كينو صوت الحبال عندما أخرجت جوانا كويوتيتو من الصندوق المعلق وقامت بتنظيفه ووضعته داخل دثارها بحيث صار معلقاً وقريباً من صدرها.

وكان في مقدور كينو أن يتصور هذه الأشياء دون أن يراها وبدأت جوانا تغني في رقة أغنية قديمة لا تحتوي إلا على ثلاثة ألحان، غير أنها تزخر بالتفاوت في ارتفاع الصوت تارة وانخفاضه تارة أخرى.

وكانت هذه الأغنية جزءاً من أغنية الأسرة أيضاً. وأحياناً كانت تستحيل إلى أنغام متآلفة مؤلمة تسيطر على الحنجرة.. أنغام تقول: هنا الأمان، هنا الدفء، هنا الكل المقدس.

وخلف السور المصنوع من أغصان الشجر، كانت هناك بيوت أخرى من الأغصان، ومن هذه البيوت صعد الدخان أيضاً، وارتفعت الأصوات التي تصاحب كل طعام، ولكنها كانت أغنيات غير أغنية كينو، وكانت الخنازير في هذه البيوت غير خنازير كينو، والزوجات لسن مثل جوانا. كان كينو صغير السن، قوياً، وكان شعره الأسود يتهدل على جبهته البنية. أما عيناه فدافئتان نفاذتان براقتان، وشاربه فرفيع خشن. وأزاح ملاءته عن أنفه، فالهواء الرطب السام قد تبدل، وأشعة الشمس الصفراء غمرت البيت، وعلى مقربة من السور المصنوع من أغصان الشجيرات

تضارب ديكان وأحني كل منهما رأسه وأخذ يخدع الآخر ويفرد جناحيه وينقش ريش رقبته. ولا شك أن القتال سيكون خشناً، ولكنهما لم يكونا من الطيور المدربة على القتال. وأخذ كينو يراقبهما لحظة، ثم لمحت عيناه سرباً من اليمام الوحشي يطير بسرعة في الجو متجهاً نحو الجبال. العالم كله قد استيقظ الآن، ونهض كينو ودخل منزله المصنوع من غصون الشجيرات.

وبينما هو يدخل نهضت جوانا تاركة الفجوة التي توجت فيها النار، وأعادت كويرتيتو إلى صندوقه المعلق، وبعد ذلك أخذت تمشط شعرها الأسود، ثم جعلته ضفيرتين وربطت كل ضفيرة بشريط رفيع أخضر اللون. وجلس كينو القرفصاء بجوار الفجوة التي اشتعلت فيها النار وطوى إحدى الفطائر الساخنة المصنوعة من الذرة، وغمس الفطيرة في الحساء، وأكلها. وشرب كأسا من الخمر، وهذا هو طعام الإفطار الذي تعود عليه، باستثناء أيام الأعياد، والولائم التي قدمت فيها فطائر كادت تقتله. وعندما فرغ كينو من طعامه عادت جوانا إلى النار وتناولت إفطارها، ودار بينهما الكلام مرة، ولكن لا حاجة إلى الكلام إذا كان من قبيل العادة، وتنهد كينو معبراً عن ارتياحه، فكانت هذه التنهيدة حواراً.

وأخذت الشمس تدفئ البيت وتتخلل فرجاته في خطوط طويلة. وسقط أحد هذه الخطوط على الصندوق المعلق الذي يرقد فيه كويوتيتو، وعلى الحبال التي ترفع هذا الصندوق.

ثمة حركة صغيرة جعلت عيونهما تتركز على الصندوق المعلق.

وتسمر كينو وجوانا في مكانهما. فقد كان هناك بين الحبل الممتد من السقف حتى صندوق الطفل عقرب يتحرك في بطء وكان ذيله ممتداً خلفه، غير أنه يستطيع أن يشرعه في أسرع من لمح البصر.

أخذت أنفاس كينو تصفر وهي تمر في خياشيمه، وفتح فمه لكي يتوقف هذا الصفير، وفجأة ضاعت من عينيه النظرة المذعورة، وتلاشت من جسده صلابته وجموده. وانسابت في رأسه أغنية جديدة.. أغنية الشر، أغنية العدو، وكل ما يعادي الأسرة: كان لحناً وحشياً، خفياً، رهيباً، ومن خلفه كانت أنشودة الأسرة تصرخ في شجن.

وبخفة، أخذ العقرب يهبط على الحبل متجهاً ناحية الصندوق، وكانت أنفاس جوانا تتلاحق وهي تردد تعويذة قديمة ترد غائلة هذا الشر، وكانت تتمتم من بين أسنانها المطبقة مستغيثة بالعذراء. أما كينو فلم تهدأ ثائرته. لقد انساب بجسده عبر الحجرة بهدوء، وبدون ضجة، وفي نعومه. وكانت يداه ممتد بين أمامه، أما راحتاه فكانتا تجاه الأرض، بينما حدقت عيناه في العقرب. وفي نهاية الحبل، أسفل العقرب، في الصندوق المعلق، كان كويوتيتو يضحك ويمد يده ناحية العقرب. وأحس العقرب بالخطر ولا يبق بينه وبين كينو غير مسافة صغيرة. وتوقف وارتفع ذنبه فوق ظهره في ارتعاشات طفيفة، والتمعت الشركة الماثلة عند نهاية الذيل.

ووقف كينو ساكناً لا يتحرك. وصار في مقدوره أن يسمع صوت جوانا وهي تهمس بالتعويذة القديمة مرة أخرى، وصار في مقدوره أيضاً

أن يسمع موسيقى العدو الشريرة.. لم يكن في مقدوره أن يتحرك إلا إذا تحرك العقرب، وأحس العقرب بمصدر الموت الذي يقترب منه. وامتدت يد كينو إلى الإمام، في بطء شديد، وبخفة كبيرة، وانتصب الذنب ذو الشوكة وفي هذه اللحظة كان كويوتيتو يضحك، واهتز الحبل لضحكه فسقط العقرب.

وسارع كينو ليلتقطه بيده، غير انه انساب بعيداً عن أصابعه، وسقط على ذراع الطفل، واستقر عليه، ولدغه. وصدرت من كينو صيحة غضب وهو يمسك بالعقرب. ويضغط عليه بأصابعه ويحيله في يديه إلى عجينة. وقذف به، وبقبضة يده سواه بالأرض الطينية وصاح كويوتيتو من الألم وهو في صندوقه. غير أن كينو أخذ يضرب العدو ويسحقه بقدمه إلى أن استحال إلى شيء رطب مبلل في الأرض القذرة. وتعرت أسنانه وتوهج الغضب في عينيه وأخذت أغنية العدو تهدر في أذنيه.

ووضعت جوانا طفلها بين ذراعيها. وركزت بصرها على لدغة العقرب التي اتسعت حولها دائرة حمراء، وأطبقت بشفتيها على اللدغة وأخذت تمتص الدم بشدة وتلفظ ما تمتصه، وتمتص مرة أخرى، بينما يصرخ كويوتيتو.

ووقف كينو متردداً عاجزاً كأن صخرة تعترض طريقه ولا تتزحزح.

وأقبل الجيران على صيحات الطفل. تدفقوا من منازلهم المصنوعة من أغصان الشجيرات وتجمهر جوان توماس شقيق كينو، وأبولونيا زوجته

السمينة، وأولادهما الأربعة عند المدخل وسدوه، بينما وقف الآخرون وراءهم يحاولون التطلع إلى الداخل، وزحف صبي صغير بين أرجلهم ليتزود هو الآخر بنظرة. والذين كانوا في المقدمة أبلغوا النبأ للذين وقفوا وراءهم – "عقرب.. لدغ الطفل".

وتوقفت جوانا لحظة عن مص اللدغة فقد اتسعت الدائرة الصغيرة اتساعاً طفيفاً وصارت حوافها بيضاء من أثر المص، غير أن التورم القاني اتسع حولها في دائرة وتألفت منه قمة صلية. وهؤلاء الناس جميعاً يعرفون ما هو العقرب. أن الشاب قد يمرض من اللدغة مرضاً شديداً، غير أن الطفل قد يموت من السم بسرعة. وكانوا يعرفون أن الورم يحدث أول الأمر، تصحبه حمى وشعور بجفاف في الحلق، تم تشنجات في المعدة، وحينئذ قد يموت كويوتيتو إذا كانت هناك كمية كبيرة من السم. غير أن ألم العضة ذي الوخزات أخذ يتلاشى وتحولت صرخات كوبوتيتو إلى أنات.

كثيراً ما تعجب كينو من إرادة زوجته الصابرة النحيفة، فكان في مقدورها – هذه المطيعة المتواضعة المرحة الصابرة – أن تحني ظهرها لألم طفلها دون أن تفلت منها صرخة، وكان في مقدورها أن تتحمل الإرهاق والجوع ربما أكثر مما يتحملهما كينو نفسه. وفي القارب المصنوع من جذع شجرة كانت أشبه برجل قوي. والآن ها هي تقدم على خطوة غريبة.

لقد قالت "الطبيب، اذهب واحضر الطبيب".

ووصلت الكلمة إلى الجيران الذين وقفوا متزاحمين في الفناء

الصغير خلق السور المصنوع من الأغصان، ورددوا فيما بينهم: جوانا تريد إحضار الطبيب. شيء رائع، شيء لا ينسى، أن تطلب الطبيب. ولو حضر لكان أمراً يلفت النظر. لأن الطبيب لا يقترب أبداً من مجموعة المنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات. ولماذا يجيء ولديه أكثر مما يستطيع انجازه للعناية بالأثرياء الذين يعيشون في منازل المدينة المبنية من الحجارة والجبس؟

لن يجيء.. هكذا قال الناس الذين وقفوا في الغناء.

لن يجيء.. هكذا قال الناس الذين وقفوا عند الباب. ووصل القول إلى كينو.

وقال كينو لزوجته: لن يجيء الطبيب..

ورفعت عينيها نحوه، كانت عيناها بارد تين كعيني اللبؤة. كان هذا طفل جوانا البكر – كان كل شيء في عالم جوانا تقريباً. ورأى كينو تصميمها، وترددت موسيقي الأسرة في رأسه، وكانت نغماتها فولاذية:

وقالت جوانا "إذن سنذهب نحن إليه" وبيد واحدة أصلحت من وضع دثارها الداكن الزرقة فوق رأسها وجعلت من أحد أطرافه "حمالة" يرقد فيها الطفل الذي يئن، ومن الطرف الآخر ستاراً فوق عينيه ليحميه من الضوء. والذين وقفوا عند الباب أخذوا يدفعون الذين وقفوا وراءهم خارج الباب، لكي يفسحوا لها الطريق. وتبعها كينو. وخرجا من البوابة وسارا في الطريق الذي حفرته العربات بعجلاتها، وتبعهما الجيران.

لقد أصبح الأمر يهم المنطقة بأكملها، وتألف منهم موكب سريع خفيف الأقدام يتجه إلى وسط الميدان، ويتصدر الموكب جوانا وكينو ووراءهما جوان توماس وأبولونيا وقد أخذ كرشها الضخم يهتز بسبب الخطوات السريعة، ثم جميع الجيران، بينما أخذ الأطفال يركضون عند جناحي الموكب. والشمس الصفراء قد ألقت بظلالهم السوداء أمامهم، فأخذوا يدوسون ظلالهم وهم يسيرون.

ووصلوا إلى المكان الذي تختفي عنده المنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات، والذي تبدأ منه مدينة الحجر والجبس، مدينة الأسوار الخارجية الخشنة والحدائق الداخلية المنعشة حيث يترقرق شيء من الماء، وحيث صعدت أغصان النبت على الجدران بزهورها الأرجوانية والحمراء والبيضاء. وتناهي إلى أسماعهم من داخل الحدائق المسحورة غناء أطيار داخل أقفاصها، وصوت الماء المنعش وهو يتساقط على البلاط الساخن. واجتاز الركب الميدان، ومر أمام الكنيسة وأصبح الركب ضخماً الآن، وعند الأطراف كان القادمون الجدد المهرولون يسمعون في صوت خفيض كيف أن عقرباً قد لدغ الطفل، وكيف أن الأب والأم يذهبان به الآن إلى طبيب.

وفي لمحة خاطفة نظر القادمون الجدد إلى جوانا (خاصة المتسولون الذين قدموا من ناحية الكنيسة، وهم خبراء في التحليل المالي) ورأوا رداءها الأزرق القديم، والثقوب الموجودة في دثارها، وقدروا ثمن الشريط الأخضر الذي ربطت ضفيرتيها، وقدروا عمر ملاءة

كينو، والألف مرة التي غسل فيها ملابسه، وانتهوا إلى أنهما من الناس الفقراء، وهكذا ساروا مع الركب ليروا ماذا سيحدث في هذه المأساة وكان المتسولون الأربعة الذين قدموا من ناحية الكنيسة يعرفون كل شيء عن الكنيسة. لقد كانوا يدرسون التعبيرات المرتسمة على وجوه الشابات ومن يدخلن الكنيسة للاعتراف، وكانوا يتطلعون إليهن عندما يخرجن من الكنيسة ويكتشفون طبيعة الخطيئة، وكانوا على علم بكل فضيحة مهما كانت صغيرة، بل أنهم كانوا على علم ببعض الجرائم الكبرى. وتعودوا أن يناموا في مراكزهم مستظلين بالكنيسة ولهذا لم يكن أحد يتسلل إلى الكنيسة ناشداً السلوان دون علمهم. وأنهم ليعرفون الطبيب أنهم يعرفون مدى جهله، وقسوته، وجشعه، وشهواته، وخطاياه، وكانوا على علم بعمليات الإجهاض الطائشة التي يقوم بها، والبنات البنية التافهة التي نادراً ما يمنحها، من أجل الإحسان. وهم الذين شاهدوا جثث مرضاه وهي تدخل الكنيسة. ونظراً لأن القداس المبكر قد انتهى، والإحسان قليل، فإنهم تبعوا الموكب.. تبع الموكب هؤلاء الذين لا ينتهى سعيهم وراء المعرفة الكاملة لنفوس إخوانهم من البشر. ليروا ماذا سيفعل الطبيب السمين الكسول مع طفل معدم، ولدغة عقرب؟

وأخيراً وصل الركب المهرول إلى البوابة الضخمة في حائط منزل الطبيب. وأصبح في مقدورهم أن يسمعوا صوت رذاذ الماء، وغناء العصافير داخل الأقفاص، وصوت المقشات الطويلة وهي تكنس البلاط، وأصبح في

مقدورهم أيضا أن يشموا رائحة شواء لحم خنزير لذيذ في بيت الطبيب.

وتردد كينو لحظة، هذا الطبيب ليس من عشيرته، هذا الطبيب من جنس طل قرابة أربعمائة عام يضرب جنس كينو، ويجوعه، ويسرقه، ويحتقره، بل ويخيفه أيضاً، ولهذا اقترب الفقير من الباب في ذلة. وكما هي العادة عندما يقترب كينو من رجل من هذه السلالة فانه أحس بالضعف، وأحس بالخوف والغضب في وقت واحد. وأحس بالرعب في نفس الوقت. أن قتل الطبيب أيسر عليه من التحدث إليه، لأن كل سلالة الطبيب تتحدث إلى كل سلالة كينو كما لو كانوا مجرد حيوانات. وعندما رفع كينو يده اليمنى ليطرق البوابة بالحلقة الحديدية المعلقة ثارت في نفسه موجة من الحنق، وأخذت موسيقى العدو تصطخب في أذنيه، وأطبق شفتيه بشدة على أسنانه. غير أنه رفع يده اليسرى ليزيح بها قبعته. وارتطمت الحلقة الحديدية بالبوابة، وخلع كينو قبعته ووقف ينتظر. كان كويوتيتو يئن أنيناً خافتاً بين ذراعي جوانا، وكانت جوانا تهدئ من روعه. وازداد اقتراب الموكب ليرى وليسمع جيداً.

ومضت لحظة، وانفتحت البوابة الضخمة مسافة بوصات قليلة ومن خلال فرجة الباب استطاع كينو أن يلمح الحديقة بخضرتها المنعشة، والنافورة الصغيرة التي تقذف بالماء. وكان الرجل الذي فتح الباب من جنس كينو فتحدث إليه باللغة القديمة. قال كينو:

لقد سمم العقرب هذا السفير البكر، أنه في حاجة إلى براعة الطبيب المعالج.

وكادت البوابة تقفل، ورفض الخادم أن يتحدث باللغة القديمة. وإنما قال: لحظة قصيرة. سأذهب لأبلغ النبأ بنفسي. وأقفل البوابة ووضع المزلاج في مكانه. وألقت الشمس المتوهجة على الحائط الأبيض بظلال الناس المتراكمة السوداء.

كان الطبيب جالساً في سريره المرتفع القائم في غرفته. كان يرتدي منامته الحريرية الحمراء التي جاءت إليه من باريس، وهي الآن تضيق على صدره بعض الشيء إذا أقفلها. بينما استقرت فوق حجره صينية من الفضة، عليها إزاء ففي للشكولاتة، وفنجان دقيق الصنع من الصيني، فنجان رقيق جداً إلى حد أن منظره كان شاذاً عندما رفعه بيده الضخمة– وأمسكه بأطراف إبهامه وسبابته، فانفرجت الأصابع الثلاثة الأخرى بعيداً لكي لا تعوقه. واستقرت عيناه بين وسادتين من اللحم، صغيرتين منتفختين، أما فمه فقد تهدل دليلاً على عدم الرضى. لقد أخذ جسده يزداد بدانة، وصار صوته خشناً مبحوحاً من أثر الدين الذي تراكم في حلقه، وعلى مقربة منه فوق المائدة أسطوانة شرقية صغيرة يقرعها لطلب الطعام، ووعاء مملوء بالسجائر. أما أثاث الحجرة فكان ثقيل الوزن، غامق اللون محزناً. والصورة المعلقة كانت صوراً دينية. أما الصورة الضخمة الملونة فإنها لزوجته الراحلة التي تعيش الآن في السماء إذا كان ذلك في مقدور القداس الذي أوصت بعمله، ودفعت تكاليفه من أرضها.

لقد كان الطبيب.. لفترة قصيرة.. جزءاً من العالم العظيم وبعد هذه

الفترة صار يعيش حياته كلها يفكر في فرنسا ويحن إليها. كان يقول: هذا هو العيش المتحضر. وكان يعني بهذا انه استطاع – بدخل صغير – أن يعاشر عشيقة ويتناول الطعام في المطاعم. ثم صب لنفسه فنجاناً من الشكولاتة للمرة الثانية وحطم بأصابعه "بسكوته" حلوة. وأقبل الخادم من البوابة وفتح الباب وظل واقفاً ينتظر إلى أن يحس السيد بوجوده.

وسأله الطبيب: نعم؟

هندي حقير يحمل طفلان يقول إن عقربا لدغ الطفل.

ووضع الطبيب فنجانه برفق أولاً، وبعدها أرخي لغضبه العنان أليس لدي عمل أؤديه أفضل من علاج عضات الحشرات "للهنود الحقراء"؟ هو لست طبيب بيطرياً، أنا دكتور.

وقال الخادم: نعم، يا سيدي.

وسأله الطبيب: هل معه أي نقود؟ لا، أنهم لا يملكون نقوداً على الإطلاق. أما أنا، أنا وحدي دون سائر خلق العالم، فيتوقعون مني أن أعمل دون مقابل – وقد سئمت هذا ولنسأله إذا كان معه أي نقود!

وعند البوابة فتح الخادم الباب قليلاً وتطلع إلى الذين وقفوا ينتظرون وفي هذه المرة تكلم باللغة القديمة.

هل لديك نقود لدفع تكاليف العلاج؟

وأدخل كينو يده في مكان مجهول تحت ملاءته. وأخرج ورقة كثرت

بها الثنيات. وأخذ يبسط شغية أثر ثنية، إلى أن ظهرت في النهاية ثماني لؤلؤات صغيرة مشوهة، لؤلؤات قبيحة رمادية كأنها دمامل صغيرة، مفرطحة، عديمة القيمة تقريباً. وأخذ الخادم الورقة وأقفل البوابة مرة أخرى، غير انه لم يغب طويلاً هذه المرة. وفتح البوابة مسافة صغيرة تسمح له بإعادة الورقة.

وقال: لقد خرج الطبيب، طلبوه لأن هناك حالة خطيرة. وأسرع بأقفال البوابة بدافع الخزي.

وها هي موجة من الخزي والعار تجتاح الموكب كله. وذاب الحشد، وعاد الشحاذون مرة أخري إلى سلالم الكنيسة، وتحرك المتسكعون مبتعدين ورحل الجيران حتى لا تظل فضيحة كينو أمام الجميع ماثلة في عيونهم.

ومضي وقت طويل وكينو يقف أمام البوابة وبجانبه جوانا. وفي بطء أعاد قبعته الذليلة إلى رأسه. وفجأة، ودون سابق إنذار، اضرب البوابة بقبضة يده ضربة ساحقة وحملق، باستغراب، في مفاصل أصابعه المهشمة وفي الدم الذي تدفق من بين أصابعه.

الفصل الثاني

كانت المدينة ترقد عند المصب، أما مبانيها القديمة المطلية بالمصيص الأصفر، فكانت تعانق الشاطئ، حيث رست القوارب المصنوعة من جذوع الأشجار ظلت تعمل أجيالاً عدة بفضل معجون في صلابة القواقع، لا يتأثر بالماء، وقد كانت صناعته سراً يعرفه الصيادون وحدهم. كانت هذه القوارب شامخة رشيقة، وقد انحنت، مقدمتها ومؤخرتها، وفي منتصف القارب مكان لتركيب سارية تحمل شراعاً مثلث الشكل.

وكانت رمال الشاطئ صفراء، وعلى حافة الماء تكومت القواقع والطحالب، وأخذت حيوانات السرطان العازف ترمي بفقاعاتها ورذاذها وهي داخل مخابئها في الرمال، وفي المناطق الضحلة بدأت السرطانات الصغيرة تظهر وتختفي في مأواها الضيق بين كومة القواقع وداخل الرمال. أما قاع البحر فزاخر بأشياء تزحف، وأشياء تعوم، وأشياء تنمو. أخذت الطحالب البنية اللون تميل مع التيارات الرقيقة، وأخذ ثعبان العشب الأخضر يتموج، بينما تعلقت حيوانات حصان البحر بسيقان هذا العشب. وعند القاع، في أحواض عشب الثعابين كانت هنالك ديدان

صغيرة مبرقشة، وأسماك سامة، أما السرطانات البحرية العائمة، ذات الألوان الزاهية، فأخذت تغذ السير فوقها.

وعند الشاطئ كانت كلاب المدينة الجائعة، وخنازيرها الملهوفة البحث دون هوادة عن سمكة ميتة أو طير بريطانيا على الماء عند المد.

وبالرغم من أن الصباح لم يكن قد شب بعد عن الطرق، إلا أن السراب الغامض ارتفع، وخيم على الخليج بأكمله ذلك الجو الغامض الذي يضخم بعض الرؤى بينما يخفي الأخرى، وهكذا استحالت كل المناظر إلى أشياء خيالية، ولم يعد في الإمكان أن يثق إنسان بما يراه وهكذا صار للبحر ولليابسة وضوح الأحلام وغموضها. من أجل هذا قد يحدث أن يصدق أهل الخليج أشياء روحية وأشياء خيالية، غير أنهم لا يصدقون عيونهم، ولا يثقون في أنها ستدلهم على البعد أو تتيح لهم ملامح واضحة أو صورة بصرية دقيقة. وعبر المصب، من ناحية المدينة، ظهر جزء من أشجار المنجروف البحرية واضحاً، يسهل تحديده بالتليسكوب، بينما ظهرت أجنة أخرى من المنجروف، وكأنها فقاعة غامضة خضراء اللون داكنة. واستحال جزء من الشاطئ البعيد إلى شيء يتألق كما لو كان ماء. لم يكن هناك يقين من وراء الرؤية، ولم يكن هناك ما يثبت لك أن ما رأينه موجود بالفعل أو غير موجود وكان أهل الخليج يتوقعون أن تكون جميع الأماكن كهذه الأماكن ولم تكن بغريبة عليهم. وعبر الماء امتدت أطياف غامضة بلون النحاس وأخذت الشمس

المحرقة تسلط أشعتها على الماء وتجعل ارتعاشاته تتألق بأضواء قاسية.

وكانت بيوت الصيادين المصنوعة من أغصان الشجيرات بعيدة عن الشاطئ، على يمين المدينة، وكانت القوارب الجولة المصنوعة من جذوع الشجر مربوطة أمام هذه المنطقة.

واقترب كينو وجوانا من الشاطئ ببطء حتى وصلا إلى القارب، قارب كينو، وهو الشيء الوحيد – ذو القيمة الذي يملكه في هذا العالم. كان قارباً عتيقاً جداً. أحضره جد كينو من نياريت ثم أعطاه أوالد كينو، ثم صار أخيراً في حوزة كينو. لم يكن هناك شك في أنه شي، يمتلك وأنه مصدر رزق، فالرجل الذي يملك قارباً يستطيع أن يعد زوجته بأنها ستأكل شيئاً. إنه حصن يصد غائلة الجوع، وتعود كينو كل عام أن يعالج قاربه بالمعجون الصلب الذي يشبه القواقع مستخدماً الطريقة السرية التي انحدرت إليه أيضا من أبيه. ها هو يقترب الآن من القارب ويلمس القاع في رقة كما تعود أن يفعل دائماً. ووضع صخرة الغطس، والسلة والحبلين في الرمال، بجانب القارب. وطوى عباءته ووضعها في قاع القارب.

وقامت جوانا بوضع كويوتيتو فوق العبادة، وغطته بد نارها حتى لا يؤذيه ضوء الشمس. لقد هدأ الآن، غير أن التورم فوق كتفه قد امتد إلى عنقه، وإلى أسفل أذنه، وصار وجهه منتفخاً محموماً. واقتربت جوانا من الماء وخاضت فيه، وجمعت شيئاً من عشب البحر البني اللون وصنعت منه لبخة مسطحة غير جافة، ثم وضعتها فوق كتف الصبي المتورم، كانت

شيئاً صالحاً للعلاج، وهي أفضل على كل حال مما لو كان الطبيب قد عالجه. غير أن العلاج كان يفتقر إلى ما للطبيب من سلطة، فلقد كان علاجاً بسيطاً لا يكلف شيئاً. أن تقلصات المعدة لم تحدث لكويوتيتو. ومن الجائز أن تكون جوانا قد امتصت السم بعيداً في الوقت المناسب، غير أنها لم تمتص بعيداً قلقها من أجل وليدها البكر. أنها لم تصل صلاة مباشرة تطلب فيها شفاء الطفل، وإنما طلبت في صلاتها أن يحصلا على لؤلؤة يستأجران بها الطبيب ليشفي الطفل، فعقول هؤلاء الناس خيالية هذا السراب الذي يخيم على الخليج.

والآن، أخذ كينو وجوانا يسحبان القارب فوق الشاطئ، واتجها به نحو الماء وعندما طفأ تسلقته جوانا وجلست بداخله بينما أخذ كينو يدفع المؤخرة إلى الماء ويخوض بجانب القارب إلى أن طفا بخفة وأخذ يرتعش فوق الأمواج الصغيرة التي أخذت تضرب فيه. وفي اتساق أخذت جوانا وكينو يضربان في البحر بالمجاديف ذات الحافتين وتجعدت صفحة الماء تحت القارب، وكان لسرعته فحيح. أما صيادو اللؤلؤ الآخرون فقد سبقوه منذ وقت طويل. واستطاع كينو بعد لحظات قلائل أن يراهم وقد تكتلوا في السراب، وساروا بقواربهم فوق موطن المحار.

اخترق الضوء الماء حتى وصل إلى حيث ترقد محارات اللؤلؤ ذات التضاريس، وقد التصقت بالقاع ذي الركام الذي تبعثرت على أرضه محارات مفتوحة مهشمة. هنا يكمن موطن اللؤلؤ الذي جعل ملك

اسبانيا قوة يعتد بها في أوروبا في السنوات الماضية، والذي أعانه على الاتفاق على حروبه، والذي زخرف له الكنائس من أجل روحه. هنا محارات رمادية ذات غضون - كأهداب الثوب - عند سطحها، ومجارات ذات قشرة حلزونية، وقد تعلقت قطع صغيرة من العشب بالغضون وتسلقتها سرطانات بحرية صغيرة. قد يحدث شيء لهذه المحارات، قد تستقر حبة من الرمل بين ثنايا العضلة وتزعج اللحم، ويدافع اللحم عن نفسه فيفرز فوق حبة الرمل طبقة تشبه الأسمنت الناعم، ولكن ما أن تبدأ هذه العملية حتى يستمر اللحم في تغطية الجسم الغريب بالإفرازات إلى أن يسقط في موجة من الغضب أو إلى أن تتحطم المحارة. وتمضي الأجيال والرجال يغطسون إلى القاع وينتزعون المحارات من مواطنها ويشقونها باحثين عن حبات الرمل التي غطتها الإفرازات. أما السمك فتحتشد جموعه على مقربة من المكان لتعيش بالقرب من المحارات التي ألقاها الباحثون مرة أخري. وتفرض السطح الداخلي اللامع للقواقع. غير أن وجود اللآلئ شيء من قبيل الصدف، والعثور على واحدة يعتبر حظاً سعيداً، يعتبر ربتة صغيرة على الظهر بيد الله أو الآلهة أو الله والآلهة معاً.

وكان هناك مع كينو. حبلان أحدهما مربوط بصخرة ثقيلة والآخر مربوط في سلة. خلع قميصه وسرواله، ووضع قبعته في قاع القارب. وكان الماء ناعماً، في نعومة الزيت، أخذ صخرته في يد، وسلته في اليد

الأخرى وبدأ ينزلق بقدمه من جانب القارب، فحملته الصخرة إلى القاع. وارتفعت الفقاعات من ورائه، ثم صار الماء رائقاً، وأصبح في استطاعته أن يرى، كان سطح الماء – فوق رأسه – مرآة ساطعة متموجة، واستطاع أن يلمح قيعان القوارب وهي عشق هذه المرأة.

أخذ كينو يتحرك بحذر حتى لا يعكر الطين أو الرمل صفو الماء. وتشبثت بقدمه في الأنشوطة المركبة في الصخرة، وأخذت يداه تعملان بسرعة وتنتزعان المحارة، أو تنتزعان المحارات في جماعات ووضع هذه المحارات في سلته. وفي بعض الأماكن كانت المحارات متلاصقة، الواحدة بالأخرى، وهكذا كان ينتزعها على صورة كتل والآن.

لقد تعود شعب كينو أن يتغنى بكل شيء يحدث أو بكل ما هو كائن. لقد غنوا للأسماك، للبحر في ثورة غضبه، وللبحر في سكينته، للضياء وللظلمة، للشمس والقمر. وكانت الأغاني كلها فى كيان كينو وكيان شعبه – كل الأغاني ما قيل منها، بل وما راح منها ضحية النسيان.. وبينما أخذ كينو يملأ سلنه بالمحارات كانت الأغنية في كيانه، أما إيقاعها فكان ضربات قلبه الذي يلتهم الأوكسجين من الأنفاس التي حبسها، أما لحن الأغنية فعبر عنه الماء ذو الحضرة الرمادية، وعبرت عنه الحيوانات الصغيرة الراكدة، والسحب التي تخلفها السمكة التي تمرق بسرعة ثم تختفي. ولكن كانت هنالك داخل الأغنية أغنية صغيرة غامضة، أغشية لا تكاد تحس بها، غير أنها دائماً هناك، حلوة، غامضة،

لحوحة، تكاد تختفي وراء اللحن المقابل للحن الأساسي، هذه الأغنية هي أغنية "اللؤلؤة التي قد تكون"، أن كل صدفة تغيب في السلة قد تحتوي على لؤلؤة. لم تكن المصادفة في خدمة هذا الاحتمال، غير أن الحظ السعيد، والآلهة قد يكونون في خدمته، وكان كينو يعرف أن جوانا تستخدم الآن، في القارب السائر فوقه، تعاويذ الصلاة. وقد جمد وجهها وتصلبت عضلاتها، لكي تمنع الحظ من أيدي الآلهة، فلقد كانت في حاجة إلى الحظ من أجل كشف كويوتيتو المتورم. ولأن الحاجة ملحة، ولان الرغبة شديدة، كانت الأغنية الصغيرة الغامضة من أجل "اللؤلؤة التي قد تكون أقوى" في هذا الصباح من أي صباح مضى.. وفي وضوح وعذوبة اندمجت مقاطع كاملة منها مع أغنية الأعماق.

كان كينو فتياً، قوياً، معتزاً بفتوته وقوته، ولهذا كان في مقدوره البقاء في الأعماق دون جهد لأكثر من دقيقتين. وهكذا استطاع أن يعمل في روية، وأن يختار أكبر القواقع. ونظراً لأن المحارات قد أصابها انزعاج فإنها قد أحكمت قفل غطائها. وعلى مقربة من يمينه انبثقت صخرة تفتت أحجارها، وقد غطتها محارات صغيرة لم يحن بعد أوان قطافها. واتجه كينو إلى الصخرة البارزة، وعلى مقربة من هذه الصخرة، وتحت نتوء صغير، لمح محارة كبيرة جداً، ترقد في عزلتها دون أن تكون لها أخوة يغطونها ويلصقون بها، كانت الصدفة مفتوحة بعض الشيء، وذلك لأن النتوء كان يحمي هذه المحارة العتيقة. ولمح كينو – من

خلال العضلة التي تشبه الفم – وميضا خيالياً، ثم أوصدت المحارة فتحتها. وارتفعت ضربات قلبه محدثة إيقاعاً قوياً وتعالت في أذنيه ألحان "اللؤلؤة التي قد تكون" وببطء أخذ ينتزع المحارة من مكانها، وأطبق عليها وضغط بها على صدره، ورفس بقدمه الأنشوطة المركبة في الصخرة. وطغا جسده إلى السطح، والتمع شعره الأسود في ضوء الشمس. وانحنى على حافة القارب ووضع هذه المحارة في قاعه.

وعندئذ أوقفت جوانا القارب ريثما يصعد كينو. كانت عيناه يرقان من الانفعال، غير أنه أخفى انفعاله وجذب صخرته. ثم جذب سلته المملوءة بالمحار، ورفعهما ووضعهما في القارب وأحست جوانا بأنه منفعل، وتصنعن عدم الاكتراث. وأشاحت بوجهها. لأنه ليس من الصواب أن تلح في طلب شيء. فقد يطرد هذا الإلحاح الحظ في بعض الأحيان. ويجب أن تحتاج إلى هذا الشيء باعتدال، كما يجب أن تكون لبقة جداً مع الله أو الآلهة. بيد أن جوانا كتمت أنفاسها وعلى مهل، أخذ كينو يفتح مدينة القصيرة الحادة. وتطلع إلى السلة في تأمل. ربما كان من الأفضل أن يرجئ فتح "المحارة" حتى النهاية. والتقط محارة صغيرة من السلة، وقطع الأعضاء، وأخذ يبحث بين ثنايا اللحم، ثم قذف بها في الماء. ثم تظاهر بأنه يلمح الحارة العظيمة للمرة الأولى، فجلس القرفصاء في قاع القارب والتقط الصدفة وأخذ يتفحصها. كانت الأخاديد تلتمع فيها ما بين أخدود أسود وآخر بني، ولم تكن هناك فوق

الصدفة غير حلزونات صغيرة قليلة في العدد. والآن، لم يكن كينو متحمساً لفتحها. ربما لم يشاهد في القاع غير انعكاس، أو قطعة من صدفة مسطحة دخلت في المدارة عن طريق الصدفة، أو ربما كان الذي رآه وهما. فإن الأوهام – في هذا الخليج ذى الضوء الغامض – أكثر من الحقائق.

غير أن عينى جوانا كانتا مسلطتين عليه، ولم يكن في مقدورها أن تنتظر. ووضعت يدها على رأس كويوتيتو المغطى. وفي صوت خافت قالت: "افتحها".

وأغمد كينو مديته في حافة الصدقة بمهارة. واستطاع أن يحس، خلال المدية، بالعضلة وهي تتصلب في الداخل. وأخذ يرفع حافة الصدفة بحد المدية، وانفرجت العضلة المتصلبة وانكسرت الصدفة. وتلوى اللحم الذي يشبه الفم، ثم سكن. ورفع كينو اللحم: كانت ترقد عناء تلك اللؤلؤة العظيمة، المكتملة اكتمال القمر. كانت تتلقى الضوء وتصفية، وتعكسه، بعد أن تجعله يتلظى ببيريق فضي، كانت في ضخامة بيضة طائر النورس البحرى .. كانت أعظم لؤلؤة في العالم.

وتوقفت أنفاسي جوانا، وصدرت من فمها أنه خافتة. وفي أذن كينو تردد اللحن الغامض "للؤلؤة التي قد تكون". كان لحناً واضحاً وجميلاً، كان لحناً زاخراً بالنغم ودافئاً وحلواً، كان لحناً متألقاً، شاخصاً إلى الأمام، منتصراً، واستطاع أن يري على سطح اللؤلؤة العظيمة أطياف أحلام. وانتزع اللؤلؤة

من اللحم الذي يموت، ووضعها في راحته، وأخذ يقلبها، وتأكد من أن استدارتها كاملة. واقتربت جوانا منه لتحملق فيها وهي فوق راحة يده، كانت اليد التي مزقها وهو يطرق بوابة الطبيب، وكان لحم العظم الممزق قد واستحال إلى لون أبيض يشوبه لون رمادي من أثر ماء البحر.

ودون وعي اتجهت جوانا إلى كويوتينو حيث يرقد فوق ملاءة أبيه ورفعت اللبخة المؤلفة من عشب البحر وفحصت كتفه. وصاحت بصوت مرتفع: "كينو"..

والتفت إليها تاركاً لؤلؤته، وعرف أن التورم أخذ يتلاشى من كشف الطفل، وأن السم أخذ يتراجع عن جسده. وعندئذ أطبق كينو على اللؤلؤة بقبضة يده، جمحت عواطفه. وأمال رأسه إلى الوراء وصاح بصوت صارخ، تعلقت عيناه بالفضاء، وصرخ، وتصلب جسده، والتفت الرجال في القوارب الأخرى منزعجين، ثم شقوا بمجادفيهم أمواج البحر وأسرعوا متجهين نحو قارب كينو.

الفصل الثالث

المدينة شيء يشبه حيوان المستعمرات. المدينة شيء له أعصاب ورأس وكتفان وقدمان. المدينة شيء يختلف عن جميع المدن الأخرى ولهذا لا توجد مدينتان متشابهتان. وللمدينة عاطفتها المكتملة .. كيف تنتقل الأنباء في المدينة؟ ذلك سر يتعذر حله. ويبدو أن الأنباء تسبق الصبية الصغار الذين يتزاحمون ويندفعون لإبلاغها، ويبدو أنها تسبق النسوة اللائي يحكونها ومن يقفن عند الاسوار.

وقبل أن يصل كينو وجوانا وغيرهما من الصيادين منزل كينو المصنوع من الأغصان، كانت أعصاب المدينة تنبض وتهتز بالأنباء – لقد وجد كينو لؤلؤة الدنيا. وقبل أن تخرج الكلمات المختنقة من أفواه الصبية اللاهثين، كانت الأمهات يعرفن كل شيء. وعبرت الأنباء تلك البيوت المصنوعة من أغصان الشجيرات. وسارت مع موجة مزبدة لتصل إلى المدينة المصنوعة من الحجر والجبس. وأقبلت الأنباء على القسيس وهو يسير في حديقته، وجعلته ينظر في تأمل ويتذكر أن الكنيسة في حاجة إلى بعض الإصلاحات. وكان يتساءل: ما هي قيمة هذه اللؤلؤة.

وكان يتساءل ما إذا كان قد عمد طفل كينو، أو قام بتزويج كينو قبل أن ينجب هذا الطفل، وأقبلت الأنباء على أصحاب المتاجر فتعلقت عيونهم بملابس الرجال التي لم يبيعوا منها الكثير.

ووصلت الأنباء إلى الطبيب بينما كان يجلس مع سيدة مصابة بمرض الشيخوخة، بالرغم من أن الطبيب، والسيدة لا يعترفان بذلك .. وعندما صار من الواضح من هو كينو هذا، تحول الطبيب إلى رجل حازم عاقل في نفس الوقت. قال الطبيب: "أنه زبونى وأنا أعالج ابنه من لدغة عقرب". ودارت حدقتا الطبيب قليلاً في محجريهما السمينين، وفكر في باريس. وتذكر الحجرة التي عاش فيها هناك، باعتبارها مكاناً تتمثل فيه العظمة والترف، وتذكر المرأة ذات الملامح القاسية، التي عاشت معه، فتاة جميلة عطوفة، غير أنها لم تكن فتاة، ولم تكن جميلة، ولم تكن عطوفة. وتخطت نظرات الطبيب مريضته العجوز وتصور نفسه يجلس في مطعم في باريس، والساقي قد هم بفتح زجاجة من الخمر.

وبكرت الأنباء في وصولها إلى المتسولين الجالسين أمام الكنيسة، وجعلتهم يضحكون من الفرح، ضحكات بلهاء، فلقد كانوا يعرفون أنه ليس هناك في العالم من يشبه الرجل الفقير في إعطائه الهبات عندما يحالفه الحظ فجأة.

لقد عثر كينو على لؤلؤة الدنيا. وفي المدينة في المكاتب الصغيرة جلس الرجال الذين يشترون اللآليء من الصيادين. لقد تعودوا أن ينتظروا

فوق كراسيهم إلى أن تدخل اللآلئ مكاتبهم، وحينئذ يتصايحون ويتعاركون ويصرخون ويتوعدون إلى أن يصلوا إلى أبخس سعر يستطيع الصياد أن يقنع به. ولكن كان هناك سعر أدنى لا يجرئون على النزول إلى ما دون مستواه. فقد حدث ذات مرة أن أعطى صياد، في نوبة يأس، لآلئه للكنيسة. وعندما ينتهي الشراء، يجلس هؤلاء المشترون وحدهم، تلعب أصابعهم، في قلق باللآلئ، ويتمنون لو كانوا يملكون هذه اللآلئ. فالواقع أنه لم يكن هناك مشترون كثيرون – كان هنالك مشتر واحد، ولقد وضع هؤلاء العملاء في مكاتب متفرقة ليوهم الناس بوجود منافسة. وصلت الأنباء إلى هؤلاء الرجال، وتساءلت عيونهم، وتحرقت أطراف أصابعهم بعض الشيء، وفكر كل واحد منهم كيف أن السيد لن يعيش إلى الأبد، وكيف أن شخصاً لا بد أن يحل محله. وفكر كل واحد منهم كيف أنه يستطيع أن يبدأ بداية جديدة برأس مال متواضع.

اهتم الناس كلهم بكينو – على اختلاف طبائعهم – الناس الذين لديهم أشياء يبيعونها، والناس الذين يريدون أن يطلبوا شيئاً. لقد عثر كينو على لؤلؤة الدنيا، وامتزج جوهر اللؤلؤ بجوهر الناس وظهرت مادة غريبة داكنة. وأصبح كل رجل، فجأة، على صلة بلؤلؤة كينو، وتسللت لؤلؤة كينو إلى أحلام الجميع، وأفكارهم، ومشاريعهم، وخططهم، ومستقبلهم، وآمالهم وحاجاتهم وشهواتهم و جشعهم. شخص واحد فقط كان يقف في طريقهم، هذا الشخص هو كينو، وهكذا أصبح عدوا لكل رجل.

أيقظت الأنباء شيئاً قائماً جداً، وشريراً جداً، في المدينة، كان الشيء الأسود المقطر يشبه العقرب، أو يشبه الجوع عند وجود رائحة الطعام، أو يشبه الوحدة عندما يمتنع الحب. وبدأت أكياس السم – في المدينة – تفرز سمومها. وتورمت المدينة من كثرة السم.

غير أن كينو وجوانا لم يعرفا هذه الأشياء. لقد كانا سعيدين، منفعلين، فظنا أن كل فرد يشاركهما فرحتهما، هذا ما فعله جوان توماس وأبولونيا، ولقد كان جوان توماس وأبولونيا يمثلان العالم أيضاً. وبعد الظهيرة، عندما انحسرت الشمس عن جبال شبه الجزيرة لتغرق في البحر البعيد، جلس كينو في منزله القرفصاء، وجلست جوانا بجانبه. والمنزل المصنوع من أغصان الشجيرات قد غص بالجيران. كان كينو يمسك باللؤلؤة العظيمة في يده، وقد كانت دافئة وحية في يده. وموسيقى اللؤلؤة قد امتزجت بموسيقى العائلة، وهكذا أخذت كل منهما تكسب الأخرى جمالاً. وتطلع الجيران إلى اللؤلؤة وهي في يد كينو وقد استغربوا كيف يهبط حظ كهذا على رجل.

وجوان توماس الذي جلس القرفصاء على يمين كينو لأنه أخوه قد تساءل: "والآن، ماذا ستفعل بعد أن أصبحت رجلاً غنياً؟".

وحملق كينو في لؤلؤته، وأسبلت جوانا أهدابها وأصلحت من وضع إزارها بحيث يخفي وجهها حتى لا تفضحها انفعالاتها. وفي وهي اللؤلؤة تجسدت صور الأشياء التي فكر فيها كينو في الماضي، ثم كف عن

التفكير لان تحقيقها مستحيل. رأى في اللؤلؤة جوانا وكويوتيتو، ورأى نفسه، وقد ركعوا عند المذبح العالي، أن زواجهما يتم الآن بعد أن أصبح في مقدورهما أن يدفعا. وتكلم في هدوء: "سنتزوج في الكنيسة".

رأى في اللؤلؤة الملابس التي سيرتدونها – رأى جوانا في إزار أصلب لأنه جديد، وقد ارتدت فستاناً جديداً، استطاع كينو أن يلمح الحذاء الذي تلبسه تحت الفستان الطويل. كان هذا كله في اللؤلؤة – كانت الصورة تتوهج في اللؤلؤة. ورأى نفسه وقد ارتدى ملابس بيضاء جديدة، وجمل قبعة جديدة – ليست من القش وإنما من اللباد الأسود الجميل – كان يلبس حذاء هو الآخر – لم يكن صندلاً، وإنما هو حذاء ذا أربطة. أما كويوتيتو – ها هو – أما كويوتيتو فقد كان يرتدي لباس البحارة الأزرق الذي صنع في الولايات المتحدة، وكان يضع على رأسه "الكاب" الصغير الذي رأى كينو مثله ذات يوم عندما سار في المصب قارب للنزهة. رأى كينو هذا كله في اللؤلؤة اللامعة وقال: "وسنحصل على ملابس جديدة".

وارتفعت موسيقى اللؤلؤة في أذنيه مثل جوقة من الأبواق.

وبعدئذ أقبلت على سطح اللؤلؤة الرمادي الجميل صور الأشياء الصغيرة التي يحتاج إليها كينو: رمح لصيد الأسماك والحيتان، بدلاً من الرمح الذي فقده منذ عام، رمح جديد من الحديد ذو حلقة في نهايته لم لا وهو قد أصبح غنياً جداً؟ ورأى كينو .. كينو في اللؤلؤة، كينو الذي

أمسك ببندقية وينشستر، كان هذا الحلم أكثر أحلام اليقظة جموحاً، وكان رائعاً جداً. وتحركت شفتاه ببطء وهو يتمتم دو بندقية.. ربما بندقية".

لقد كانت البندقية الشيء الذي حطم السدود والحدود. كانت شيئاً مستحيلاً. والآن وقد استطاع أن يفكر في امتلاك بندقية، فإن آفاق كاملة قد تفتحت أمامه، وفي مقدوره أن يندفع إلى الأمام. إذ يقال أن بني الإنسان لا يقنعون أبداً، وأنك حين تعطيهم شيئاً يطلبون المزيد. يقال هذا من باب السخرية، بينما هو من أكبر المواهب التي يتمتع بها الأحياء، وهي موهبة جعلت الإنسان يتفوق على الحيوانات التي تقنع بما تملك.

والجيران الذين احتشدوا في المنزل قد هزوا رؤوسه إزاء أحلامه الجامحة. وتمتم رجل من الخلف: "بندقية. سيحصل على بندقية".

بيد أن موسيقى اللؤلؤة كانت تصخب في أذن كينو في رنة انتصار.. ورفعت جوانا عينيها، واتسعت حدقتاها من شجاعة كينو وخياله ها هي قوة كهربائية تهبط عليه بعد أن أتسعه أمامه الآفاق. وفي اللؤلؤة رأى كويوتيتو وقد جلس أمام درج صغير بالمدرسة. مثلما رأى هذا المنظر ذات يوم من خلال باب مفتوح. وفي اللؤلؤة كان كويوتيتو يليس حلته، وقد وضع حول عنقه ياقة بيضاء وربطة عنق حريرية عريضة. وأكثر من هذا أن كويوتيتو أخذ يكتب على صفحة كبيرة من الورق. وحملق كينو في جيرانه بحدة. وقال "وسيذهب ابني إلى المدرسة". وسيطر الصمت على الجيران. وأمسكت جوانا أنفاسها بشدة. كانت عيناها

تلمعان وهي تراقبه، وأسرعت تنظر إلى كويوتيتو الراقد بين ذراعيها لترى إذا كان في الإمكان أن يتحقق هذا..

وسطع وجه كينو بالنبوة. "سيقرأ ابني وسيفتح الكتب، سيكتب ابني وسيتعلم كيف يكتب. وسيعرف ابني الأعداد، وستجعلنا هذه الأشياء أحراراً لأنه سيعرف – سيعرف وعن طريقه سنعرف". وفي اللؤلؤة رأى كينو نفسه وجوانا وقد جلسا القرفصاء بالقرب من النيران الضئيلة في الكوخ المصنوع من أغصان الشجيرات بينما أخذ كويوتيتو يطالع في كتاب ضخم. وقال كينو: "هذا ما ستحققه اللؤلؤة". ولم يحدث في حياته أن تكلم كثيراً هكذا. وفجأة أحس بالذعر لأنه تكلم. وأطبق بيده على اللؤلؤة وحجب عنها الضوء. كان كينو خائفاً خوف الرجل الذي يقول "سأفعل" دون أن يدري ..

والآن، تأكد الجيران من أنهم شاهدوا أعجوبة كبرى. وعرفوا أن التاريخ سيبدأ من لؤلؤة كينو، وأنهم سيتحدثون عن هذه اللحظة لعدة أعوام مقبلة. ولو تحققت هذه الأشياء فسيروون كيف كان كينو ينظر، وماذا قال، وكيف أن عينيه كانتا تبرقان، وسيقولون: "لقد تحول الرجل إلى إنسان آخر تلقي الوحي. أن قوة تفتحت من زوجها، ومن هنا بدأ كل شيء. أترون كيف صار رجلاً عظيماً، بادئاً من هذه اللحظة، أما أنا فقد رأيت هذا كله بنفسه".

أما إذا استحالت خطط كينو إلى لا شيء فإن هؤلاء الجيران

أنفسهم سيقولون: "هكذا بدأ كل شيء. اجتاحه جنون أبله فأخذ يتفوه بكلمات بلهاء. وقانا الله شر هذا. نعم، عاقب الرب كي لأنه تمرد على طبائع الأمور. أترون ما انتهى إليه أمره. أما أنا فقد رأيت بنفسي اللحظة التي جن فيها".

ونظر كينو إلى يده المطبقة، وكانت عظام اليد دامية متوترة من أثر ضربة البوابة.

والآن، ها هو الليل يسدل ستاره، ووضعت جوانا طرف أزارها تحت الطفل، وهكذا صار معلقاً عند عجيزتها، واتجهت إلى الفجوة التي تحتوي على النار والتقطت من الرماد قطعة من الفحم وكسرت فوقها بعض أعواد الشجر وأخذت تنفخ فيها حتى تشتعل الجذوة. وتراقصت ألسنة اللهب الصغيرة في وجوه الجيران. وعرفوا أن عليهم أن يذهبوا إلى منازلهم ليتناولوا عشاءهم فيها، غير أنهم لم يكونوا يودون الخروج.

وخيم الظلام تقريباً، وألقت نار جوانا ظلالها على الجدران المصنوعة من الأغصان، وفي هذه اللحظة وصل الهمس الذي تنقل من فم إلى فم: "الأب مقبل – القسيس مقبل". وخلع الرجال أغطية رؤوسهم وتنحوا عن الباب، وجمعت النسوة أطراف ملابسهن حول وجوههن وأطلق برؤوسهن. ووقف كينو وجوان توماس، أخوه. ودخل القسيس – كان رجلاً يتسلل إليه اللون الرمادي، والشيخوخة، جلده عجوز وعينه فتية حادة. كان ينظر إلى هؤلاء الناس باعتبارهم أطفالاً، وكان يعاملهم على أنهم أطفال.

وتحدث في رقة: "كينو، لقد سميت باسم رجل عظيم — وأب كبير للكنيسة". وتعمد أن تكون لهجته لهجة من يبارك: "لقد أخضع اسم سلفك الصحاري وأحال تفكير ذويك إلى شيء عذب. أتعرف هذا؟.. انه مكتوب في الكتب".

واختلس كينو نظرة إلى رأس كويوتينو، حيث كان معلقاً فوق عجيزة جوانا، وحدث نفسه قائلاً: سيجيء يوم يعرف فيه هذا الصبي ما هي الأشياء التي في الكتب وما هي الأشياء التي ليست فيها. لقد تلاشت الموسيقي من رأس كينو، وحل محلها لحن الصباح، موسيقى الشر، موسيقى العدو، في ضعف، وببطء.. كانت ترن، غير أنها كانت هزيلة ضعيفة. وحدق كينو في وجوه جيرانه ليرى من الذي أدخل هذا اللحن، غير أن القسيس أخذ يتكلم مرة أخري: "نمى إلى علمي أنك عثرت على ثروة عظيمة، على لؤلؤة عظيمة".

فتح كينو بده وأبرزها، وشهق القسيس شهقة صغيرة لضخامة اللؤلؤة وجمالها. ثم قال: "آمل ألا تنسي، يا بني، أن تشكر الرب الذي منحك هذا الكنز، وأن تصلي سائلاً إياه أن يهديك إلى الطريق في مستقبل أيامك".

وأومأ كينو برأسه دون أن ينبس ببنت شفة، أما جوانا فهي التي تكلمت في صوت رقيق: "سنفعل يا أبتاه. وسنتزوج الآن هكذا قال كينو". ونظرت إلى الجيران باحثة عن تأييد، وأومأوا برؤوسهم في وقار.

وقال القسيس: "يسرني أن أكتشف أن خواطركم الأولى خواطر طيبة، باركِكم الرب يا أولادي. "واستدار، وخرج في هدوء، وتنحى الناس يفسحون له الطريق.

غير أن يد كينو قد شددت قبضتها على اللؤلؤة مرة أخرى، وها هو يرنو ببصره فيمن حوله وقد سيطرت عليه الشكوك، ذلك لان أنشودة الشر أخذت ترن في أذنيه، وتطغي على موسيقي اللؤلؤة.

وتسلل الجيران مبتعدين، ذاهبين إلى منازلهم، وتربعت جوانا بجانب النار ووضعت فوق ألسنة اللهب الصغيرة إناء من الطين به يقول مسلوقة. وخطا كينو نحو الباب ونظر في الفضاء. وكما هي العادة، استطاع أن يشم رائحة الدخان المنبعث من فيران متعددة، وأن يلمح النجوم الخافتة، وأن يحس برطوبة الليل، وكان أن غطى أنفه ليقي نفسه منه. وأقبل الكلب الهزيل نحوه، ليحييه، وصار أشبه براية تخفق من الريح. ونظر كينو إليه، ولم يره. لقد اقتحم الآفاق ليجد العراء البارد الموحش. أحس أنه وحيد، وأنه ليس هنالك من يحميه، وأخذت حشرات صرار الليل تصر، وضفادع الأشجار تصدح، بينما تعالى نقيق الضفادع البرية، وكأنها تنقل المدن الشر، وسرت في جسد كينو رعشة خفيفة، واشتد جذبه الملاءة فوق أنفه. ما زال يحمل اللؤلؤة في يده، وقد أطبق عليها براحة اليد، وكانت دافئة الملمس، ناعمة.

وسمع من خلفه صوت جوانا وهي تسوي الفطائر قبل وضعها على

لوح الطهي المصنوع من الطين، وأحس كينو – من خلفه – بكل ما في أسرته من دفء وأمان، وأقبلت عليه أغنية العائلة وكأنها قطة صغيرة تعلن بصوتها، عن اغتباطها.

لقد رسم صورة لمستقبله، وبذلك خلق هنا المستقبل. الخطة شيء حقيقى، ملموس، والإنسان حين يتكهن بأشياء فإنما يعانى تجاربها وهو يتكهن بها. وحينما توضع الخطة ويتم تصورها فإنها تصبح حقيقة ملموسة، مثل أي حقيقة أخرى – حقيقة لا تتحطم أبداً، غير أنها تتعرض للهجوم بسهولة. وهكذا استحال مستقبل كينو إلى حقيقة ملموسة، ولكنه ما أن شيد هذا المستقبل حتى ظهرت عناصر أخري لتحطمه. وكان يعرف هذا، ومن ثم كان عليه أن يستعد لملاقاة الهجوم.

ومن أجل هذا، كان كينو يخاف من الخطط، ولكنه قد وضع واحدة ولهذا فهو لا يستطيع أن يحطمها أبداً. ولكي يلاقى كينو أي هجوم شرع منذ هذه اللحظة يحمي نفسه من العالم محتمياً وراء قشرة سميكة. وأخذت عيناه، وذهنه، يفتشون عن الخطر قبل ظهوره.

وبينما هو يقف عند الباب، لمع رجلين يقتربان، وكان أحدهما يحمل مصباحاً أضاء الأرض وأضاء أرجل الرجلين. ودخلا من خلال فتحة السور المحيط بمنزل كينو حتى وصلا إلى بابه، واكتشف كينو أن الرجل الأول هو الطبيب وأن الثاني ذلك الخادم الذي فتح البوابة في الصباح. وعندما عرفهما تلظت النار في العظام المهشمة بعد كينو اليمني.

وقال الطبيب: "لم أكن بالمنزل عندما أتيت هذا الصباح، ولكني انتهزت الآن أول فرصة سنحت لي للمجيء ورؤية الطفل".

ووقف كينو في مدخل الباب وملأكه بجسده، وثار الحقد والتهب في مؤخرة عينيه، وثار الخوف أيضاً، فلقد تغلغلت فيه سنون الخضوع التي بلغت المئات..

وقال في اقتضاب: "لقد أصبح الطفل على ما يرام".

وابتسم الطبيب، غير أن عينيه لم تبتسما في وسائدهما اللمفاوية.

وقال: "أحياناً، يا صديقى، يكون للدغة العقرب نتائج غريبة. يحدث تحسن ظاهرى ثم – بدون سابق إنذار – بوف!" و أدار شفتيه وأخرج من بينهما صوتاً أشبه بالانفجار ليصور كيف يحدث هذا بسرعة، وحرك حقيبة الطب، الصغيرة السوداء، حتى سقط عليها ضوء المصباح، فلقد كان يعرف أن شعب كينو يحب أدوات أية مهنة ويثق في هذه الأدوات، واستطرد الطبيب متحدثاً في لهجة ناعمة: "أحياناً.. أحياناً تكون النتيجة قدم مشلولة أو عين لا ترى أو ظهر محطم. أوه، أنني أعرف يا صديقي ماذا تعني لدغة العقرب، وإني لا أعرف كيف أعالجها".

وأحس كينو بالحنق والكراهية يذوبان و يتحولان إلى خوف، أنه لا يدري، أما هذا الطبيب فربما يدري. وهو لا يستطيع أن يغامر ويقف بجهله المؤكد في وجه هذا الرجل الذي قد يعرف. أنه أسير الفخ، تماماً كما ظل شعبه دائماً أسير الفخ، وسيظلون هكذا، إلا إذا تأكدوا – كما

قال كينو – من أن الأشياء الموجودة بالكتب موجودة في الكتب بالفعل. أنه لا يستطيع أن يغامر – لا يستطيع أن يغامر بحياة كويوتيتو، وتنحى عن الباب ليمكن الطبيب وتابعه من دخول الكوخ المصنوع من أغصان الشجيرات.

ووقفت جوانا وتركت النار، وابتعدت عند دخوله، وغطت وجه الصبي بطرف إزارها. وعندما اتجه الطبيب نحوها ومد يده تشبثت بالطفل، وتطلعت إلى كينو حيث وقف، وقد تراقصت ظلال النار على وجهه.

وأومأ كينو برأسه، وحينئذ فقط سمحت للطبيب بأخذ الطفل.

وقال الطبيب: "نور". وعندما رفع الخادم المصباح عالياً نظر الطبيب – لحظة – إلى الجرح الموجود في كتف الطفل – وفكر هنيهة، وبعدما رفع جفن الطفل وفحص سواد العين. وهز رأسه بينما أخذ كويوتيتو يحاول جاهداً التخلص منه.

وقال: "هذا ما توقعته، لقد تسلل السم إلى داخل الجسم وسيضرب ضربته في الحال. تعال، أترى! – أنه أزرق". وعندما تطلع كينو في قلق رأى بالفعل أنه أزرق إلى حد ما. ولم يكن يعرف ما إذا كان لونه يميل إلى الزرقة دائماً أو لا يميل. غير أن الفن قد نصب، وهو لا يستطيع أن يفلت.

والتمعت عيناً الطبيب في محاجرهما. وقال: "سأعطيه شيئاً يجعله يستبعد السم جانباً". وأعاد الطفل إلى كينو.

وأخرج من حقيبته زجاجة صغيرة مملوءة بمسحوق أبيض. وكبسولة من الجيلاتين. وملأ الكبسولة بالمسحوق واقفلها، ثم أحاط الكبسولة بكبسولة أخري وأقفلها. ثم أخذ يعمل بسرعة. أخذ الطفل وقرص شفته السفلي إلى أن فتح الطفل فمه. وبأصابعه السمينة وضع الكبسولة عند مؤخرة لسان الطفل، بعيداً عن النقطة التي يستطيع الطفل عندها أن يلفظ الكبسولة، ثم التقط إبريقاً صغيراً من على الأرض يحتوي على شراب مكسيكي، وأعطى كويوتيتو جرعة، وانتهى الأمر، ونظر مرة أخرى إلى عيني الطفل ومط شفتيه، و بدا وكأنه يفكر..

وأخيراً أعاد الطفل إلى جوانا واستدار ليواجه كينو وقال: "أعتقد أن مفعول السم سيسرى خلال هذه الساعة. والدواء قد ينقذ الطفل من الأذى، ولكني سأعود في ظرف ساعة. ربما جاء وصولي في الوقت المناسب لإنقاذه". وأخذ نفساً عميقاً وخرج من الكوخ، وتبعه خادمه وهو يحمل المصباح.

ها هي جوانا قد وضعت الطفل تحت إزارها، وها هي تحملق فيه بنظرات امتزج فيها القلق بالخوف. وأقبل كينو نحوها، وأزاح الإزار ونظر إلى الطفل. وحرك يده ليتطلع إلى ما وراء الجفن، وفي هذه اللحظة فقط اكتشف أن اللؤلؤة ما زالت في يده. وحينئذ اتجه إلى صندوق بجانب الحائط واستخرج منه خرقة من القماش. ولف اللؤلؤة في الحرقة، ثم اتجه إلى ركن في المنزل وحفر بأصابعه حفرة صغيرة في الأرضية القذرة، ووضع اللؤلؤة في الحفرة وغطاها، وأخفى المكان. وبعد ذلك اتجه إلى

النار حيث جلست جوانا القرفصاء ترقب وجه الطفل.

وعندما عاد الطبيب إلى منزله استرخى في كرسيه ونظر إلى ساعته.. وأحضر له أهل المنزل عشاء خفيفاً من الشيكولاته والفطائر الحلوة والفاكهة، وحملق في الطعام باشمئزاز.

وفي منازل الجيران تم إبراز الموضوع الذي سيشغل كل الأحاديث لفترة طويلة ليرى الجيران إلى أي وجهة سيتجه هذا الحديث. وأخذ كل واحد من الجيران يصور للآخر بإبهامه مبلغ ضخامة اللؤلؤة، ويعبر في حركات ناعمة، عن مبلغ جمالها.. من الآن سيراقب هؤلاء كينو وجوانا مراقبة دقيقة ليروا ما إذا كانت الثروة ستدير رؤوسهم كما تشير الثورة رؤوس الناس جميعاً. كان الجميع يعرفون لم إذا اذهب الطبيب. كان بارعاً في النفاق وكان الجميع "يكشفونه".

وفي الخارج، عند المصب، كانت هناك مجموعة من الأسماك الصغيرة المتشابكة التي أخذت تلتمع وتشق الماء لتهرب من مجموعة مكونة من أسماء كبيرة أخذت تسبح لتلتهمها. وكان في مقدور الناس، القابعين داخل منازلهم، أن يسمعوا حفيف الأسماء الصغرى والرذاذ المتطاير من الأسماك الكبرى بينما المذبحة مستمرة. وتصاعدت الرطوبة من الخليج واستقرت – في قطرات ملحية – على الشجيرات وعلى نبات الصبار وعلى الأشجار الصغيرة. وعلى الأرض، وفي الظلمة، زحفت فئران، وطاردتها صقور الليل الصغيرة في صمت.

واقترب الجرو الأسود النحيل، ذو النقط الحمراء عند عينيه، اقترب من باب كينو وتطلع إلى الداخل.

وعندما رنا إليه كينو ببصره كادت مؤخرته تنخلع، وعندما أشاح كينو بوجهه عنه اطمأن. لم يدخل الجرو المنزل، بيد أنه أخذ يرقب كينو – باهتمام جنوني – وهو يأكل بقوله من الطبق المصنوع من الفخار، ويمسح قاعه بفطيرة الذرة، ويأكل هذه الفطيرة، ثم يغطي هذا كله بجرعات من الشراب المكسيكي.

كان كينو قد فرغ من طعامه وأخذ يلف لنفسه سيجارة، وفجأة تحدثت جوانا في حدة: "كينو!"، ونظر إليها، وبعدها نهض وأسرع إليها، ذلك لأنه قد لمح الذعر في عينيها. ووقف ينظر نحوها وهي جالسة على الأرض، بيد أن الضوء كان معتماً للغاية. وقذف في فجوة التيار بكومة من الأغصان الصغيرة ليحصل على وهج، واستطاع أن يرى وجه كويوتيتو. كأن وجه الطفل مختنقاً وكان اللعاب الثقيل ينساب من حلقه في خط ص غير ويخرج من بين شفتيه وبدأت عضلات المعدة تتقلص واشتدت العلة بالطفل.

وركع كينو بجانب زوجته. "فالطبيب كان يعرف إذن"، هذا ما قاله لها، وما قاله لنفسه أيضاً، فلقد بدأ تفكيره يتصلب، وبدأت الشكوك تراوده، وتذكر المسحوق الأبيض. وأخذت جوانا تهتز ذات اليمين وذات الشمال وتنشد، في أنين، أغنية الأسرة، كما لو كان في مقدور هذه

الأغنية أن تبعد أخطر، وتقيأ الطفل بين ذراعيها وانكمش. والآن، ها هو الشك يجتاح كينو، وها هي موسيقى الشر تطن في رأسه وتكاد تطغى على أغنية جوانا.

انتهى الطبيب من التهام الشيكولاتة وأخذ يلتقط في فمه الفتات الذي تناثر من الفطيرة المسكرة. ومسح أصابعه في (الفوطة)، ونظر في ساعته، ونهض، والتقط حقيبته الصغيرة.

سرعان ما وصلت أنباء مرض الطفل إلى المنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات، ذلك لأن المرض هو العدو الثاني للفقراء، والفقر هو العدو الأول. وقال البعض في صوت وأهن: "أن الحظ، كما تعرفون بالطبع، يجلب أصدقاء مخلصين" وأومأوا برؤوسهم ونهضوا لزيارة منزل كينو. وتحت جنح الليل هرول الجيران وقد غطوا أنوفهم إلى أن تجمهروا مرة أخرى في منزل كينو. وقفوا وأخذوا يحملقون، ثم أسفوا في تعليقاتهم الموجزة لأن شيئاً من هذا يحدث في فترة مسرة، ثم قالوا:

"كل شيء بيد الله" وجلست النسوة القرفصاء بجانب جوانا لمساعدتها إذا استطعن ومواساتها إذا عجزن عن هذه المساعدة.

وفجأة دخل الطبيب وهو يهرول، يتبعه خادمه. وبدخوله تبعثرت النسوة العجائز كما لو كن دجاجات. وأخذ الطفل وجس رأسه. وقال: "السم، لقد سرى السم. أعتقد أن في مقدوري التغلب عليه، سأبذل كل ما في وسعي". وطلب ماء، وفي الفنجان المملوء بالماء وضع ثلاث

قطرات من النشادر، وفتح فم الطفل بصعوبة وصب السائل فيه. وأخذ الطفل يصدر من فمه أصواتا مختلطة ويصرخ تحت وطأة العلاج، وأخذت جوانا ترقبه بعيون مذعورة. ولم يتكلم الطبيب كثيراً وهو يعالجه. "من حسن الحظ أنني أعرف ما هو سم العقرب، والال..." وهز كتفيه مشيراً إلى ما كان من الممكن أن يحدث.

غير أن كينو يشك، وهو لا يستطيع أن يرفع عينيه عن حقيبة الطبيب المفتوحة، والزجاجة الموضوعة فيها والمملوءة بالمسحوق الأبيض. وشيئاً فشيئاً تلاشت التقلصات واستسلم الطفل ليدى الطبيب. وبعد ذلك تنهد كويوتيتو بعمق واستغرق في النوم – فلقد أنهكه القيء.

ووضع الطبيب الطفل بين ذراعي جوانا. وقال: "سيشفي الآن: لقد كسبت الجولة" ونظرت إليه جوانا في إعجاب وتقديس.

والآن ها هو الطبيب يقفل حقيبته وما هو يقول: "ما هو الوقت الذي تختاره لدفع هذه الفاتورة؟ " .. قال هذا في رقة.

وقال كينو: "بعد أن أبيع لؤلؤتي سأنقدك الأجر".

وتساءل الطبيب في اهتمام: "ألديك لؤلؤة؟ لؤلؤة عظيمة؟

وعندئذ انفجر الكورس المؤلف من الجيران. وصاح الكورس: "لقد عثر على لؤلؤة الدنيا" وشبكوا إبهامهم بسبابتهم ليصوروا مبلغ ضخامتها.

وتصايحوا: "سيصبح كينو رجلاً غنياً. أنها لؤلؤة لم ير أحد قتل مثلها".

وتظاهر الطبيب بالدهشة، وقال: "لم أكن أعرف. هل تحتفظ بهذه اللؤلؤة في مكان أمين؟ ربما أحببت أن أحتفظ بها في خزانتي؟".

وكانت عينا كينو مطبقتين، وكان خداه متوترين. وقال: "إنني أحتفظ بها في مكان أمين. وغداً سأبيعها وسأنقدك أجرك".

وهز الطبيب كتفيه، ولم تغادر عيناه المبللتان عيني كينو. كان يعرف جيداً أن اللؤلؤة لا بد مدفونة في مكان ما بالمنزل، وآمن بأن كينو سينظر إلى المكان الذي خبئت فيه. وقال الطبيب: "من العار أن تسرق هذه اللؤلؤة قبل أن تستطيع بيعها". ولمح عينى كينو وهما تتركزان – على الرغم منهما – في الأرضية بالقرب من العمود الجانبي للمنزل.

وعندما تعرف الطبيب وعاد الجيران –على كره منهم – إلى منازلهم، جلس كينو القرفصاء بالقرب من قطع الفحم الصغيرة المتوهجة في حفرة النار، وأخذ يصيخ السمع إلى صوت الليل، إلى الصوت الخافت للأمواج الصغيرة المتكسرة على الشاطئ ونباح الكلاب الآتي من بعيد، إلى النسيم وهو يزحف بين ثنايا سقف المنزل المصنوع من الأغصان، والجيران وهم يتحدثون حديثاً خافتاً في منازلهم القائمة في القرية. ذلك لأن هؤلاء الناس لا ينامون نوماً عميقاً طيلة الليل، أنهم يستيقظون من حين لآخر ويتحدثون قليلاً ثم يستغرقون في النوم مرة أخرى. وبعد لحظات وقف كينو ثم اتجه إلى باب منزله.

وشم النسيم وأخذ يبحث بأذنيه عن أي صوت غريب ينم عن

التلصص أو الزحف، وأخذت عيناه تفتشان الظلمة، ذلك لأن موسيقى الشر أخذت ترن في رأسه، ولقد استحال إلى شخص خشن مذعور. وبعد أن اختبر الليل بحواسه اتجه إلى المكان القائم عند العمود الجانبي حيث أخفى اللؤلؤة، وحفر الأرض وأخرجها إلى حصيرته التي ينام عليها، وحفر حفرة صغيرة تحت الحصير، في الأرض القذرة، وخبأ لؤلؤته وغطاها بالتراب مرة أخرى.

وأخذت جوانا ترقبه في تساؤل، وقد جلست بالقرب من حفرة النار، وبعد أن فرغ من دفن لؤلؤته سألته: "ممن تخاف؟".

وأخذ كينو يبحث عن إجابة صادقة وأخيراً قال: "من الجميع" استطاع أن يحس بقوقعة من الصلابة والقسوة تلتف حوله.

وبعد لحظات استلقيا فوق الحصير المعد للنوم، وفي هذه الليلة لم تضع جوانا طفلها في صندوقه وإنما جعلت من ذراعيها مهداً له، وغطت رأسه بأزارها. واختفى آخر شعاع من بقايا النار في الحفرة.

غير أن ذهن كينو أخذ يحترق، حتى أثناء نومه، ورأى في المنام أن كويوتيتو يستطيع القراءة، وأن أحد أفراد جنسه يستطيع أن يفصح عن حقيقة الأشياء. ورأى في حلمه كويوتيتو وقد أخذ يقرأ في كتاب ضخم ضخامة منزل كبير، وبالكتاب حروف في ضخامة الكلاب، وأخذت الكلمات تقفز وتتراقص على صفحات الكتاب. وفجأة انتشرت الظلمة فوق الصفحة، ومع الظلمة أقبلت موسيقي الشعر مرة أخرى، وتململ

كينو في فراشه، وعندما تململ فتحت جوانا عينيها في الظلمة. واستيقظ كينو وموسيقى الشر تطن في أعماقه، ورقد في الظلمة وقد أرهف أذنيه.

وفجأة صدر من زاوية المنزل صوت خافت، بلغ من خفوته أنه ربما كان وهماً، صوت حركة صغيرة متلصصة، وقع قدم فوق الأرض، همس أنفاس مكتومة لا تكاد تسمع. وكتم كينو أنفاسه لكي ينصت، وعرف أن الشيء الأسود الماثل الآن في منزله – أياً كانت طبيعته – يكتم نفسه أيضاً، لينصت. ومضت لحظات ولم يصدر أي صوت من زاوية المنزل المصنوع من أغصان الشجيرات. وقد كان من المحتمل أن يظن كينو حينئذ أن الصوت الذي تخيله لي يكن إلا وهماً. غير أن بد جوانا امتدت إليه محذرة، وعندئذ سمع الموت مرة أخرى: حفيف قدم فوق أرض جافة، واحتكاك أصابع بالتربة.

والآن ها هو الخوف الوحشي يثور في صدر كينو، وها هي الثورة تلاحق الخوف، كما كانت تفعل دائماً. وتسللت يد كينو إلى صدره حيث تعلقت سكينه في خيط، وقفز فجأة كما لو كان قطاً غاضباً، قفز وأخذ يطعن ويزمجر في وجه الشيء الأسود الذي كان يعرف أنه موجود في ركن المنزل. وأحس بوجود ثوب وسدد سكينه نحو هذا الثوب وأخطأ الهدف، وطعن مرة أخرى وأحس بسكينه ينفذ من خلال الثوب، وفجأة سحق البرق رأسه وجعلها الألم تنفجر. وكانت هناك هرولة خفيفة عند الباب، وأقدام تجري، ثم صوت وسكون.

واستطاع كينو أن يحس بالدم الدافئ ينهمر من جبينه، واستطاع أيضاً أن يسمع صوت جوانا وهي تناديه: "كينو! كينو!". كان في صوتها رعب. وبعد ذلك اجتاحته برودة سريعة كما اجتاحه من قبل غضب سريع، وقال: "أنا على ما يرام، لقد ذهب الشيء" وزحف في طريقه عائداً إلى الحصير الذي ينام عليه. وكانت جوانا أمام حفرة النار. وأزاحت الرماد والتقطت قطعة من الفحم الملتهب ووضعت فوقها قطعاً صغيرة من أغلفة الذرة، وخرج ضوء دقيق يتراقص داخل الكوخ. ثم أخرجت جوانا – من مكان مجهول – قطعة صغيرة من شمع مقدس وأضاءتها من لهب النار ووضعتها فوق حجر بالقرب من النار. كانت تعمل بسرعة وتترنم وهي تتحرك هنا وهناك. وغمست طرف أزارها في الماء ومسحت الدم من جبين كينو الذي أصابته الكدمات. وقال كينو: "لا شيء". غير أن عينيه وصوته كانا قاسيين، باردين، وأخذت الكراهية تتزايد في أعماقه، وتفرخ.

والآن طفا إلى السطح ذلك التوتر الذي كان يغلي في أعماق جوانا، وكانت شفتاها متقلصتين. وصاحت بخشونة: "أنها مشئومة .. هذه اللؤلؤة خطيئة! أنها ستقضي علينا" وارتفع صوتها الصارخ: "أقذف بها بعيدا يا كينو. فلنهشمها بين الحجر. فلندفنها وننسى مكانها. فلنعيدها إلى البحر. لقد جلبت معها الشر كينو، زوجي، أنها ستقضي علينا". وتحت ضوء النار كان الخوف بنبض في شفتيها وعينيها.

ولكن وجه كينو لم يلن، ولم يلن عقله، وعزيمته. وقال: "هذه فرصتنا. يجب أن يذهب ابننا إلى المدرسة. يجب أن يتخلص من الإناء الذي وجدنا أنفسنا محبوسين فيه".

وصرخت جوانا: "إنها ستقضي علينا جميعاً. حتى على ابننا".

وقال كينو: "اسكتي. كفي عن الكلام في الصباح ستبيع اللؤلؤة، وعندئذ سيختفي الشر، ولا يبقى إلا الخير. والآن لا تتكلمي، يا زوجتي". وتطلعت عيناه السوداوان إلى النار في حزن، ولأول مرة أحس أن سكينه ما زال في يده، ورفع السكين وفحصه، فلمح خطا رفيعاً من الدم فوق الصلب. وفي اللحظة الأولى بدا وكأنه سيمسح حد السكين في سرواله، غير أنه أغمد السكين في الأرض، وبذلك نظفها.

وبدأت الديكة تؤذن من بعيد، وتغبر الهواء، وبدأ الفجر يتسلل. وتجعدت – مياه المصب من ريح الصباح، وهمست الريح خلال أشجار المنجروف البحرية، وأخذت المويجات تصفع الشاطئ الزاخر بالصخور بعد أن ازدادت سرعتها – ورفع كينو حصيره الذي ينام عليه واستخرج اللؤلؤة من الحفرة، ووضعها أمامه، وأخذ يحملق فيها.

وخدعت اللؤلؤة – بجمالها – عقله، فقد كانت تخطف بالبصر وتتلألأ على ضوء الشمعة الصغيرة. ما أجملها، وما أعذبها، وها هي موسيقاها تنبعث من داخلها – موسيقى الأمل والمسرة، وها هى تبشر بالمستقبل، بالراحة، بالأمان. كانت شفافيتها الدافئة تبشر بالشفاء من

المرض، وبالسياج الذي يحمي من المهانة. وها هي توصد على الجوع الباب، وبينما كينو ينظر إليها صارت عيناه وادعتين، وانفرجت أسارير وجهه. واستطاع أن يرى صورة صغيرة للشمعة المقدسة وقد انعكست على سطح اللؤلؤة الناعم، ومرة أخري سمع بأذنيه موسيقي الأعماق العذبة، ولحن الضياء الأخضر المنتشر في قاع البحر. وكانت جوانا تنظر إليه من طرف خفي، ورأته يبتسم. ولأنهما كانا – بطريقة ما – شيئاً واحداً، وأملا واحداً، فإنها ابتسمت معه بدورها.

وصباحهما قد بدأ والأمل يداعبهما..

الفصل الرابع

ما أعجب الطريقة التي تقتفي بها مدينة صغيرة أثرها وأثر كافة وحداتها. ولو سار كل رجل وامرأة، كل صبي وطفل، على نهج معروف – في تصرفاته وسلوكه – ولم يخرج على أن نظام ولم يختلف عن أي شخص آخر ولم يقدم على أية تجربة ولم يمر ولم يعرض للخطر راحة المدينة وسكنيتها أو سيرها المنتظم على وتيرة واحدة، لو فعل هذه لاختفت هذه الوحدة ولما سمع بها أحد بعد ذلك.

ولكن، دع رجلاً يخرج على المألوف أو على القاعدة المعروفة المتبعة، فسرعان ما تتوتر أعصاب أهل المدينة، ويحدث الاتصال عبر أعصاب المدينة وعندئذ تتصل كل وحدة بالوحدة الكبرى.

وهكذا شاع في الصباح الباكر، في لا باز، في جميع أنحاء المدينة، أن كينو سيبيع لؤلؤته اليوم. شاع هذا النبأ بين صفوف الجيران الذين يقطنون الأكواخ المصنوعة من أغصان الشجيرات، وبين صيادي اللؤلؤ، وشاع بين أصحاب محال البقالة الصينيين، وشاع داخل الكنيسة، لأن صبية المذبح تهامسوا بالنبأ. وتسلل الخبر إلى الراهبات، وصار

موضوعاً للمتسولين الذين يجلسون أمام الكنيسة ذلك لأنهم سيكونون هناك، ليأخذوا صدقتهم من أولى ثمرات الحظ. وأصاب الصبية الصغار انفعال وهم يسمعون النبأ. ولكن أهم من هذا كله أن تجار اللؤلؤ عرفوا النبأ، وعندما أقبل الصبح، جلس كل رجل بمفرده في مكاتب تجار اللؤلؤ، ومعه صينيته الصغيرة المغطاة بالقطيفة السوداء، وأخذ كل رجل يلعب باللآلئ بأطراف أصابعه ويتصور دوره في هذه المسرحية.

كان هناك اعتقاد بأن تجار اللؤلؤ مستقلون. وأن كل تاجر يتصرف بمفرده ويضارب مع الآخر من أجل الدلالية التي يحضرها الصيادون إلى مكاتب الشراء. حدث هذا في الماضي. ثم اكتشفوا أن هذه الطريقة تفقدهم الكثير، فكثيراً ما ارتفعت مضاربات مجنونة من أجل لؤلؤة ثمينة، وتكون النتيجة أن يحصل الصيادون على ثمن مرتفع جداً. واعتبروه إسرافاً ونادوا بعدم تشجيعه. والآن، ليس هناك غير مشتر واحد للؤلؤ، مشتر له مساعدون عديدون، والرجال الذين جلسوا في مكاتبهم ينتظرون كينو يعرفون جيداً ما هو الثمن الذي سيعرضونه، وما هو السعر الذي سترتفع إليه المضاربة، وما هي الطريقة التي سيستخدمها كل واحد منهم. وبالرغم من أن هؤلاء الرجال أن يكسبوا شيئاً غير رواتبهم المحددة. إلا أن الحماس كان يغمرهم، ذلك لأن الاقتناص والصيد يثيران الحماس والانفعال، وإذا كانت مهمة الرجل منهم الهبوط بسعر معين، فلا بد أنه سيحس بالرضى والفرح لأنه انخفض به إلى أقل تسمية ممكنة. أن كل

رجل في العالم يستخدم أقصي قدراته، وليس هناك من لا يختزل من قدراته، بصرف النظر عن رأيه في هذا. أن مشتري اللؤلؤ هر مشترى اللؤلؤ بصرف النظر عن أي مكافأة قد يحصل عليها، أو أي ثناء، أو أي ترقية. والذي يشترى اللؤلؤ بأبخس الأسعار هو أفضل البائعين، وأسعدهم.

وكانت الشمس صفراء ملتهبة في ذلك الصباح، وامتصت الضباب من المصب، ومن الخليج، وجعلته معلقاً في الهواء كوشاح يتلألأ، وهكذا اختلج الهواء، وصارت الرؤية شيء خيالي غير ملموس. وفي شمالي المدينة تعلقت في الهواء احدى الرؤى – صورة جبل يبعد عن المدينة أكثر من مائتي ميل، كانت أشجار الصنوبر تغمر منحدراته الشاهقة، وعند أعلى النطاق الذي يقف عنده نمو الشجر برزت قمة صخرية هائلة.

وفي صباح هذا اليوم كانت القوارب المجوفة المصنوعة من جذوع الأشجار (كانوى) منتظمة في صفوف عند الشاطئ، لم يخرج الصيادون إلى عرض البحر للغوص وراء اللؤلؤ، فهنالك أحداث ضخام، وهناك أشياء كثيرة يجب التفرج عليها عندما يذهب كينو لبيع اللؤلؤة العظيمة.

وفي المنازل المصنوعة من الأغصان والعالية عند الشاطئ، طال جلوس جيران كينو أمام طعام إفطارهم، لقد أخذوا يتحدثون عن الأشياء التي كانوا سيفعلونها لو كانوا قد عثروا على اللؤلؤة. وقال رجل أنه كان سيهديها للبابا المقدس في روما. وقال آخر أنه كان سيشتري بها قداسات لأرواح عائلته لألف سنة. وقال آخر أنه كان سيأخذ المال

ليوزعه على فقراء لا باز. وتحدث آخر عن جميع الأعمال الصالحة التي يمكن أن يقدم عليها الفرد لو كان معه المال، وتمنى جميع الجيران ألا تدير الثروة المفاجئة رأس كينو، وألا تجعل منه رجلاً ثرياً، وألا تطعم جذعه بالسيقان الشريرة، سيقان الطمع، والكراهية والبلادة. فلقد كان كينو رجلاً محبوباً، ومن العار أن تقضي عليه اللؤلؤة. وأخذوا يقولون: "وتلك الزوجة الطيبة جوانا، والطفل الجميل كويوتيتو، والذين سيجيئون بعد كويوتيتو. يا للكارثة لو أطاحت بهم جميعا هذه اللؤلؤة".

أما بالنسبة لكينو وجوانا فقد فاق هذا الصباح كل صباح مر بهم اللهم إلا اليوم الذي ولد فيه الطفل. أن جميع الأيام الأخرى ستنتظم حول هذا اليوم وسيكون ترتيبها طبقاً لوضعها بالنسبة له وهكذا سيقولان: "حدث هذا قبل أن نبيع اللؤلؤة بعامين" أو "كان ذلك بعد أن بعنا اللؤلؤة بستة أسابيع" وفكرت جوانا في الأمر، وخاطبت الرياح محذرة مصلية، وألبست كويوتيتو الثياب التي أعدتها له من أجل تعميده، حين يحصلان على المال للتعميد. وجوانا قد مشطت شعرها وفرقته إلى ضفيرتين وربطت طرف كل ضفيرة بشريط صغير أحمر اللون، وارتدت ثوب زفافها. وكانت الشمس قد ارتقت الربع الأول من رقعة السماء عندما تأهباً للخروج كانت ملابس كينو مهلهلة، غير أنها نظيفة وهذا هو آخر يوم يلبس فيه المهلهل من الثياب. ففي الغد، بل وفي مساء هـ ذا اليوم، سيشتري ملابس جديدة.

وارتدى الجيران ملابسهم أيضاً، وصاروا على أهبة الخروج، وجلسوا يرقبون باب كينو من الشقوق الموجودة في منازلهم. لم يشعروا بأي حرج من جراء سيرهم مع كينو وجوانا لبيع اللؤلؤة. لقد كان هذا إجراء متوقعاً، لقد كانت لحظة تاريخية، ولو لم يذهبوا لجن جنونهم. ولو لم يذهبوا فلربما اعتبره هذا إنكاراً لدواعي الصداقة.

ووضعت جوانا إزارها فوق رأسها بعناية، وأحاطت موفقها الأيمن بأحد أطرافها وأمسكت بيدها اليمني هذا الطرف، و هكذا صار لديها – تحت ذراعها – سرير معلق، وفي هذا السرير الصغير وضعت كويوتيتو، وأبرزت رأسه من الإزار حتى يستطيع أن يرى كل شيء، وربما تذكر هذا اليوم في حياته المقبلة، ووضع كينو قبعته الكبيرة المصنوعة من القش فوق رأسه، ومر بيده عليها ليتأكد من أنها في موضعها الصحيح، وأنها ليست متدحرجة إلى الوراء أو ماثلة على جانب رأسه كما يفعل الرجال العزاب المتهورون، وأنها ليست منبطحة ومسطحة فوق الرأس كما يفعل العجائز، وأمالها إلى الأمام قليلاً ليدل بها على الشجاعة في القتال، وعلى الوقار، والقوة. إن الطريقة التي تميل بها القبعة فوق رأس رجل ما تنبئك بالكثير. وانزلقت قدماه داخل "الصندل" ورفع الأشرطة فوق عقبيه وكانت اللؤلؤة العظيمة ملفوفة في قطعة قديمة ناعمة من جلد الغزال وموضوعة داخل حقيبة جلدية صغيرة، والحقيبة الجلدية موضوعة في جيب قميص كينو. وأخذ يطوي فنيات عباءته في عناية ثم جعل لها طرفاً

رفيعاً ألقاه على كتفه الأيسر. وها هما الآن على أهبة الخروج.

وخطا كينو خارجاً من المنزل في وقار، وتبعته جوانا وهي تحمل كويوتيتو وبينما هما يقطعان الطريق الضيق الذي غسلته مياه الفيضان وقد وليا وجههما شطر المدينة، انضم إليهما الجيران. وأخذت المنازل تتجشأ الناس، وأخذت مداخلها تتقيأ الأطفال ولكن نظراً لجدية الموضوع، سار رجل واحد بجانب كينو، وكان هذا الرجل أخاه: جوان توماس.

وقال جوان لشقيقه محذراً: "يجب أن تكون حريصاً حتى لا يخدعوك".

وجاء الرد بالموافقة: "سأكون حريصاً جداً".

وقال جوان توماس: "إننا لا نعرف أسعار اللؤلؤ في الأماكن الأخرى. فكيف نعرف أن الثمن المعروض علينا ثمن معقول بينما لا تعرف ما يدفعه تجار اللؤلؤ في الأماكن الأخرى؟".

وقال كينو: "هذا صحيح. ولكن أنى لنا أن نعرف، أننا هنا، ولسنا هناك".

وبينما هم يسيرون متجهين إلى المدينة أخذ الحشد يتزايد وراءهم واستمر جوان توماس يتحدث في عصبية بريئة.

قال: "قبل أن تولد فكر الكبار في طريقة يحصلون بها على مزيد من المال لقاء لؤلؤهم، قالوا: أن من الأفضل أن يكون لهم وكيل يأخذ اللآلئ إلى العاصمة لبيعها هناك ولا يحتفظ لنفسه إلا بنصيبه من الربح".

وأومأ كينو برأسه وقال: "أعرف ذلك. كانت فكرة طيبة".

وقال جوان توماس: "وهكذا حصلوا على مثل هذا الرجل، وجمعوا اللؤلؤ، وأوفدوه. ولم يسمع عنه أحد بعد ذلك، وضاعت اللآلئ. وبعد ذلك استقدموا رجلاً آخر، وأوفدوه، ولم يسمع عنه أحد بعد ذلك. وهكذا نفضوا أيديهم من الفكرة وعادوا إلى طريقتهم القديمة في البيع".

وقال كيتو: "أعرف ذلك. سمعت أبانا يحكيها. كانت فكرة جميلة، غير أنها كانت ضد تعاليم الدين، وهذا ما أوضحه أبونا القس جيداً. لقد كان ضياع اللؤلؤ عقاباً للذين حاولوا أن يغادروا أماكنهم. وأوضح القس جيداً أن كل رجل وكل امرأة، جندي أرسله الله ليحرس جزء من قلعة الكون. البعض يحرس الحصون والمتاريس والبعض الآخر يقبع عند ظلال الجدران. ولكن يجب أن يخلص كل واحد لوظيفته، ويجب ألا يجري هنا وهناك وإلا تعرضت القلعة للخطر الذي تشنه عليها جهنم".

وقال جوان توماس: "سمعته وهو يلقي هذه الموعظة. أنه يلقيها كل عام".

وأخذ الشقيقان – وهما سائران – ينظران بمؤخر عيونهما الشبه مغمضة، تماماً كما تعودا أن يفعلا، وكما تعود أجدادهم وأجداد أجدادهم منذ أربعمائة عام، منذ أن جاء الغرباء وفي يدهم الحجة والسلطة ورصاص المدافع الذي يدعم هذه الحجة وتلك السلطة. وفي خلال الأربعمائة عام تعود شعب كينو على نوع واحد فقط من أنواع الدفاع:

النظر بمؤخر العيون في شبه إغماضة، ورم الشفتين قليلاً، والابتعاد. ولا شيء يستطيع أن يحطم هذا الجدار، وفي استطاعتهم أن يظلوا في أمان، وراء هذا الجدار.

كان الموكب المجتمع رزيناً وقوراً، فلقد كان يدرك أهمية هذا اليوم، فإذا أبدى بعض الأطفال ميلاً إلى المشاجرة، أو الصراخ، أو البكاء، أو خطف القبعات ونكش الشعر، فسرعان ما يسكنهم آباؤهم. وبلغ من أهمية ذلك اليوم أن رجلاً عجوزاً جاء ليرى، وقد حمله ابن أخته على كتفيه القويتين.. وترك الموكب والأكواخ المصنوعة من أغصان الشجيرات، تركها خلفه ودخل المدينة المبنية بالحجر والجبس، وفي المدينة اتسعت الطرقات قليلاً، وكانت هناك أفاريز ضيقة بجانب المباني. وكما حدث في المرة الماضية انضم المتسولون إلى الموكب عند مروره بالكنيسة، وتطلع إليه البقالون وهو يمضي أمام محالهم، وفقدت المحلات الصغيرة زبائنها، وأقفلها أصحابها وساروا مع الموكب. وأخذت الشمس تضرب شوارع المدينة بشعاعها، بل أن الصخور الدقيقة الحجم ألقت بظلالها على الأرض.

اقترب الموكب، وسبقته أبناؤه، وتصلب تجار اللؤلؤ في مكاتبهم الصغيرة المظلمة، وتيقظوا. وأخرجوا بعض الأوراق حتى يبدو – عند ظهور كينو – وكأنهم يعملون، ووضعوا لآلئهم داخل أدراجهم، فليس من المستحسن أن يلحظ الناس لؤلؤة حقيرة توضع جانب اللآلئ. وكانوا قد

سمعوا بجمال لؤلؤة كينو. كانت مكاتب مشتري اللؤلؤ مكومة في شارع ضيق واحد، وفي نوافذها الضبان، وكانت القضبان الخشبية تحجب الضوء، ولهذا لم تتسلل إلى المكاتب غير الظلال الخافتة.

وفي أحد المكاتب جلس رجل ضخم الجنة بليد الحركة ينتظر. كان وجهه حنوناً وديعاً، أما عيناه فتلألأن صداقة. كان يكثر من لقاء تحية الصباح، ويهز اليد هزاً متوالياً، وكان مرحاً يحفظ جميع النكات ومع ذلك يكاد يميل إلى الحزن، فقد ينفجر ضاحكاً ولكنه يتذكر وسط ضحكه عمته التي توفيت فتندي عيونه أسفاً على فقدها. وفي هذا الصباح وضع وردة قرمزية في إناء على المكتب، واستقر إناء الزهر بجانب صينية اللؤلؤة الموضوعة أمامه والتي صنع إطارها من القطيفة. كان قد سار على ذقنه بالموسى حتى المنابت الزرقاء في لحيته، وكانت يداه نظيفتين وأظافره لامعة أما بابه فمفتوح يستقبل الصباح، وهو يهمهم في صوت خافت ويلعب بيده اليمنى ألعاباً سحرية تتطلب خفة اليد. فلقد أخذ يجعل قطعة من النقود تجري فوق عظام يده جيئة وذهاباً، كما جعلها تظهر وتختفي، وتنقلب وتتلألأ كانت قطعة النقود تلتمع أمام الأنظار ثم تختفي بسرعة عن الأنظار، والرجل في أثناء هذا الله لا ينظر إلى ما يصنعه بيده. لقد كانت أصابعه تعمل بطريقة آلية، وبدقة، بينما هو يهمهم ويتطلع إلى الخارج من خلال الباب. وفجأة سمع وقع أقدام الموكب القادم، وأخذت أصابع يده اليمنى تسرع وتسرع في لعبها إلى

أن سد جسم كينو مدخل الباب، وغاب حريق العملة.

وقال الرجل الضخم الجثة: "نعمت صباحاً يا صديقي. أنا في خدمتك".

أخذ كينو يحملق في عتمة المكتب الصغير، وهو لا يكاد يفتح عينيه من كثرة الوهج في الخارج. غير أن عينى الشاري استحالت إلى عينين ثابتتين، قاسيتين، لا تطرفان، كعيني صقر، بينما ابتسمت بقية ملامح وجهه محيية. وفي خفية، وراء الدرج، كانت يده اليمني تلعب بقطعة النقود.

وقال كينو: "معي لؤلؤة". وعبر جوان توماس عن استيائه لهذا التواضع بصوت خرج من أنفه. وأخذ الجيران يحملقون وهم يقفون حول المدخل، وصعد صف من الصبية الصغار فوق قضبان النافذة وأخذوا يتفرجون. وجلس عدد من الصبية على أيديهم وأرجلهم وأخذوا يرقبون المشهد من بين ساقى كينو.

وقال المشترى: "معك لؤلؤة. أحياناً يجيء رجل ومعه دستة دعنا نتفرج على لؤلؤتك. سنقدرها ونعطيك أفضل سعر". وأخذت أصابعه تعبث بقطعة النقد في جنون.

أن كينو يعرف، بالغريزة، كيف يظهر كنزه بطريقة دراماتيكية. شيئاً فشيئاً أخرج حقيبته المصنوعة من الجلد، وشيئاً فشيئاً استخرج منها القطعة الناعمة القذرة المصنوعة من جلد الغزال، وفجأة ألقى باللؤلؤة العظيمة فوق الصينية ذات القطيفة السوداء، وتدحرجت اللؤلؤة فوق

الصينية، وفي الحال تطلع كينو إلى وجه المشتري. ولكن لم تكن هناك أية بادرة، أو أية حركة، لم تتغير ملامح الوجه به غير أن اليد المختفية وراء الدرج فقد توازنها ودقتها في اللعب بقطعة النقود. وتعثرت القطعة في مفصل من مفاصل اليد، وتدحرجت في سكون إلى حجر الرجل. وانكمشت الأصابع المختفية وراء الدرج فصارت قبضة يد. وعندما خرجت اليد اليمني من مخبئها لست اللؤلؤة العظيمة بالسبابة، ودحرجتها فوق القطيفة السوداء. والتقطتها بالإبهام والسبابة ورفعتها، وقربها من عينى زجل اللؤلؤ وإدارتها في الفضاء.

كتم كينو أنفاسه. وكتم الجيران أنفاسهم وامتد الهمس إلى الصفوف الخلفية في الحشد. "أنه يفحصها الآن – لم يحدد السعر بعد– لم يصلا إلى سعر بعد".

ثم استحالت يد الرجل إلى شيء له شخصيته وكيانه. لقد تألقت اليد باللؤلؤة العظيمة في الصينية، وضربتها بالسبابة وار قسمت على وجه الرجل ابتسامة حزينة ساخرة.

قال "آسف، يا صديقى". ورفع كتفيه قليلاً يوضح أن سوء الحظ هذا ليس ذنبه.

وقال كينو "أنها لؤلؤة نادرة".

وقذفت أصابع الرجل باللؤلؤة لدرجة أنها أخذت ترتطم بجدار الصينية وتبتعد عن الجدار عدة مرات.

وقال الرجل "لعلك سمعت عن ذهب الأحمق. هذه اللؤلؤة مثل ذهب الأحمق. أنها كبيرة جداً. من الذي يفكر في شرائها؟ ليست هناك أسواق تشتري مثل هذه الأشياء. أنها شيء غريب فقط. أنني آسف. لقد ظننت أنت أنها قيمة، وهي لا تعدو أن تكون شيئاً غريباً فقط".

وسيطر الانزعاج والقلق على وجه كينو. وصاح "أنها لؤلؤة الدنيا – لم ير أحد مثلها أبداً.

وقال الرجل "بالعكس، أنها كبيرة وسيلة التكوين، أنها مهمة من حيث كونها شيئاً غريباً، وربما أخذها أحد المتاحف ليضعها ضمن مجموعة من قواقع البحر، أستطيع أن أعطيك ثمناً لها، ألف بيصو[1].

واكفهر وجه كينو واستحالت ملامحه إلى شيء خطر. وقال "أنها تستحق خمسين ألفاً. أنك تعرف ذلك. أنك تريد أن تخدعني".

وها هو الرجل يسمع زمجرة خفيفة تسري بين صفوف الحشد الذي سمع بالسعر، وها هو يحس برعدة خوف..

وأسرع يقول "لا تلومني. ما أنا إلا مثمن، سل الآخرين. اذهب إليهم فى مكاتبهم واعرض عليهم لؤلؤتك – والأفضل أن تجعلهم يجيئون هنا، حتى تتأكد من عدم وجود تواطؤ بيننا. يا ولد.." وعندما تطلع إليه خادمه من الباب الخلفي قال له "يا ولد، اذهب إلى فلان،

(1) البيصو: عملة تستخدم في أمريكا اللاتينية وليست لها قيمة محددة. (المترجم).

وفلان، وفلان. أطلب منهم المجيء إلى هنا ولا تقل لهم السبب قل لهم فقط أنني سأكون مسروراً جداً لو جاءوا". واختفت يده اليمنى وراء الدرج والتقطت عملة أخرى من جيبه. وأخذت العملة تجري جيئة وذهاباً فوق مفاصل يده.

وأخذ جيران كينو يتهامسون. لقد كانوا يخشون أن يحدث شيء من هذا القبيل. أن اللؤلؤة كبيرة، غير أن لونها غريب. لقد شكوا في أمرها منذ البداية. وعلي كل حال ليس من الصواب نبذ ألف بيصو. أنها ثروة لا بأس بها بالنسبة لرجل لم يكن ثرياً في يوم من الأيام. ولنفرض أن كينو قد أخذ الألف بيصو. أمس فقط لم يكن يملك شيئاً.

غير أن كينو قد ازداد صلابة وقسوة. لقد أحس بزحف القدر. ودوران الثعالب، وتجمهر النسور، وأحس بالشر يتبلور حوله، وصار عاجزاً عن حماية نفسه. وفي أذنيه أنغام لموسيقي الشر. وفوق القطيفة السوداء أخذت اللؤلؤة تلتمع، إلى حد أن الرجل لم يستطع أن يحول أنظاره عنها.

واختلج الحشد الرابض عند مدخل الباب وانفرجت صفوفه ليفسح الطريق أمام ثلاثة من مشتري اللؤلؤ، والتزم الحشد الصمت خشية أن تفلت من أذنه كلمة، خشية أن تفوته إيماءة أو تعبير: وكان كينو صامتاً مترقباً. وأحس بمن يجذبه من الخلف جذبة خفيفة، واستدار ليجد جوانا، ونظر في عينيها وعندما استأنف وقفته الأولى كان قد استمد قوى جديدة.

لم ينظر أي مشير إلى الآخر، ولم ينظر أي واحد منهم إلى اللؤلؤة. وقال الرجل الجالس وراء الدرج "لقد قدرت هذه اللؤلؤة بمبلغ معين. وصاحبها الواقي هنا لا يعتقد أنه مبلغ عادل. وأنا أطلب منكم أن تفحصوا هذا .. هذا الشيء وتعرضوا سعركم". واتجه إلى كينو قائلاً "لاحظ أنني لم أذكر السعر الذي عرضته عليك".

وتظاهر الرجل الأول – النحيف الخشن – بأنه يرى اللؤلؤة لأول مرة. والتقطها، وأدارها بسرعة بين إبهامه وسبابته، ثم رماها – باحتقار – في الصينية.

وقال بلهجة جافة ولا تدخلوني في المساومة، لن أعرض سعراً على الإطلاق: أنني لا أريدها. ليست لؤلؤة – أنها شيء بشع". ومط شفتيه الرقيقتين.

ثم جاء الرجل الثاني، رجل ضئيل در صورت ناعم حجوا والنقل اللؤلؤة، وأخذ يفحصها بعناية. وأخرج من جيبه زجاجة مكبرة وأخذ يفحص اللؤلؤة تحتها. وبعد ذلك ضحك ضحكة خافتة.

وقال: "اللآلئ الجميلة تصنع من العجائن. أعرف هذه الأشياء هذه اللؤلؤة غير صلبة، وطباشيرية وستفقد لونها وتموت بعد شهور قليلة. أنظر" وقدم الزجاجة المكبرة لكينو، الذي لم يحدث أن رأى من قبل سطح لؤلؤة تحت منظار مكبر، وكان أن فوجئ بالسطح الغريب الشكل.

وأخذ الرجل الثالث اللؤلؤة من يد كينو، وقال "لي زبون يحب هذه

الأشياء. إنني أعرض خمسمائة بيصو ثمناً لها، وربما استطعت أن أبيعها لزبوني بستمائة بيصو".

ومن كينو يده بسرعة واختطف اللؤلؤة من يده. ولفها في جلد الغزال وحشرها داخل قميصه.

وقال الرجل الجالس وراء الدرج "أعرف أنني أحمق، غير أن عرضي الأول ما زال قائماً. ما زلت أعرض عليك ألف بيصو: ماذا تفعل؟، قال هذا وهو يرى كينو يخفي اللؤلؤة بعنف عن الأنظار.

وصرخ كينو في حدة .. ولقد خدعتموني: لؤلؤتي لا تصلح للبيع هنا، سأذهب، ربما إلى العاصمة نفسها". وتبادل المشترون النظرات. كانوا يعرفون أنهم لعبوا في هذه الجولة بقسوة، وكانوا يعرفون أنهم سيعاقبون على فشلهم، وسرعان ما قال الرجل الجالس وراء الدرج وقد أعرض عليك ألفاً وخمسمائة".

بيد أن كينو أخذ يفسح لنفسه طريقاً بين الجموع. ولم يكن يسمع طنين الكلام بوضوح، فلقد أخذ دم الغيظ يطن في أذنيه، واندفع بين الجموع لا يلوي على شيء. وتبعته جوانا وهي تهرول وراءه.

وعندما أسدل الليل أستاره جلس الجيران في المنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات يأكلون طعامهم المؤلف من فطائر الذرة والبقول وأخذوا يتناقشون حول موضوع الصباح الضخم. إنهم لا يدرون إنها لؤلؤة جميلة في نظرهم، غير أنهم لم يروا مثلها من قبل، ومن المؤكد أن تجار

اللؤلؤ يفوقونهم في التعرف على قيمة اللآلئ. وقالوا "لاحظوا أن المشترين لم يتحدثوا عن الموضوع فيما بينهم. كان كل واحد من الثلاثة يعرف أن اللؤلؤة لا قيمة لها".

"ولكن أليس من المحتمل أنهم نظموا المسألة فيما بينهم من قبل؟"

"لو حدث هذا حقاً أصبحنا جميعاً ضحية الغش طيلة سنوات عمرنا".

وربما، هكذا قال البعض، وربما كان من الأفضل أن يأخذ كينو الألف وخمسمائة بيصو. إنه مبلغ كبير من المال، أكبر من أي مبلغ رآه في حياته. ويبدو أن كينو مغفل أحمق. ولنفرض أنه ذهب إلى العاصمة بالفعل فلم يجد من يشتري لؤلؤته. إنه لن يستطيع – في هذه الحالة – أن يصمد بعد ذلك أبداً.

والآن، هكذا قال أناس آخرون مرعبون، والآن وقد تحدى كينو هؤلاء المشترين فإنهم لن يتعاملوا معه بعد الآن أبداً. ويبدو أن كينو قد شنق نفسه بنفسه، وحطم نفسه بيده.

وقال آخرون: إن كينو رجل شجاع، رجل صلب، وهو على حق. وقد نستفيد كلنا من شجاعته. و كان هذا النفر فخوراً بكينو.

جلس كينو القرفصاء فوق حصير النوم داخل منزله، وأخذ يفكر – لقد دفن لؤلؤته تحت صخرة في حفرة النار بمنزله، وهو يحملق الآن في نسيج حصير النوم المصنوع من نسيج رقيق، إلى أن تراقصت أشكال

الحصير المتشابكة في رأسه. لقد فقد عالماً ولم يحصل على آخر. وها هو كينو يحس بالخوف. لم يسبق له في حياته أن ابتعد عن موطنه. كان يخاف من الغرباء، ويخاف من الأماكن الغريبة. كان يحس بالرعب من وحش الغربة، الذي يطابقون عليه اسم العاصمة. لقد كانت قائمة وراء الماء، وعبر الجبال، وبينه وبينها أكثر من ألف ميل، وكل ميل غريب رهيب يثير الفزع.

غير أن كينو قد فقد عالمه القديم، وعليه أن يتسلق – بيديه ورجليه – عالماً جديداً. ذلك لأن الحلم الذي رسمه للمستقبل حلم حقيقي لا يجب القضاء عليه أبداً، ولقد قال "لأذهبن"، وتجسد هذا أيضاً ليصبح حقيقة واقعة. إن التصميم على الرحيل، والتفوه بهذا التصميم، يقطع نصف مسافة الرحلة.

راقبته جوانا وهو يدفن اللؤلؤة، وراقبته وهي تنظف كويوتيتو وترعى أموره، وجوانا قد صنعت فطائر العشاء المصنوعة من الذرة.

وأقبل جوان توماس وجلس القرفصاء بجانب كينو وظل صامتاً فترة طويلة من الزمان إلى أن تساءل كينو في النهاية "وأني لي أن أفعل غير ذلك؟ إنهم دجالون".

وأومأ جوان توماس برأسه في وقار. لقد كان الأخ الأكبر، وكان كينو يبحث عن الحكمة عنده. وقال "من العسير أن تعرف. إننا نعرف أننا مخدوعون منذ مولدنا حتى اللحظة التي يتقاضون فيها ثمناً باهظاً

لأكفاننا. غير أننا نعيش. انك لم تتحد مشتري اللؤلؤ، وإنما الأوضاع بأكملها، تحديت أسلوب الحياة كله، وإني لاحس بالخوف من أجلك".

وتساءل كينو "وممَ أخاف، اللهم إلا من الجوع؟"

غير أن جوان توماس هز رأسه في بطء. وقال "هذا شيء يجب أن نخشاه جميعاً. ولكن، لنفرض أنك مصيب – لنفرض أن لؤلؤتك عظيمة القيمة – هل تظن أن اللعبة قد انتهت؟"

"ماذا تعني؟:"

وقال جوان توماس "لست أدري. غير أني أحس بالخوف من أجلك. إنك تطأ بأقدامك أرضاً جديدة، وأنت لا تعرف الطريق".

وقال كينو "لأذهبن. لأذهبن في الحال."

ووافقه جوان توماس "نعم: عليك أن تفعل هذا. غير أنني لا أعتقد أنك ستجد الأمر مختلفاً في العاصمة. إن تك هنا أصدقاء، وأخ، هو أنا. أما هناك فليس لك أحد".

وصباح كينو "فماذا أصنع؟ هنا طغيان صارخ. ويجب أن تتاح الفرص أمام ابني. إنهم يقفون ضد هذا. سيحميني أصدقائي".

وقال جوان توماس "سيحمونك طالما أن هذا لا يعرضهم للخطر أو المتاعب، أما بعد ذلك فلن يحمونك." ونهض وهو يقول "في رعاية الله".

وقال كينو "في رعاية الله" ولكنه لم يرفع عينيه، فلقد كانت الكلمات مقبضة بصورة غريبة.

ومضى وقت طويل منذ أن ذهب جوان توماس، ولكن كينو جلس فوق حصيرة يفكر. لقد سيطر عليه شيء من الخمول، وشيء من اليأس الرمادي. وبدا كل طريقه وقد سد في وجهه. ولم يسمع في رأسه إلا موسيقى العدو السوداء. كانت حواسه متيقظة بطريقة ملتهبة، غير أن عقله ارتد إلى الوراء، إلى حيث يندمج مع كل شيء، هذا الاندماج موهبة ورثها عن شعبه. لقد سمع كل صوت صدر من الليل المقبل: الشكاية الناعسة التي ترددها الطيور الذاهبة إلى أوكارها.. عذاب الحب الذي تعبر عنه القطط.. أمواج الشاطئ الصغيرة وهي تكر وتفر، والحفيف الرقيق الأتي من كل ما هو بعيد، وكان في مقدوره أن يشم الرائحة النفاذة المنبعثة من عشب البحر بعد أن تركه الجزر على الشاطئ. أما الوهج الضئيل المنبعث من نيران الخشب فقد جعل الصورة المرسومة على حصير نومه تتراقص أمام عينية المسحورة.

أخذت جوانا تراقبه في قلق، بيد أنها كانت تعرفه جيداً، وتعرف أن أفضل ما تستطيع أن تفعله لمساعدته هو أن تظل صامتة، أن تظل بالقرب منه. لكأنها تسمع هي الأخرى أغنية الشر، وهاهي تحاربها وتترنم في صوت خافت بلحن الأسرة، بلحن الأمان والدفء والوحدة الذي تتيحه الأسرة، وحلت كويو تيتو بين ذراعيها وأخذت تنشد له الأغنية،

لتطرد الشر، وكان صوتها شجاعاً وهو يواجه خطر الموسيقى السوداء.

ولم يتحرك كينو، ولم يطلب عشاءه. وكانت تعرف أنه سيطلب عشاءه عندما يريد ذلك حقاً كانت عيناه مسحورتين، وكان في مقدوره أن يشعر بالشر المرتقب الماثل خارج المنزل المصنوع من أغصان الشجيرات، وكان في مقدوره أن يشعر بأشياء سوداء زاحفة تنتظر أن يخرج في الليل. كانت أشياء مظلمة مرعبة، غير أنها تناديه، وتهدده، وتتحداه. واتجهت يده اليمنى إلى قميصه، وتحسس السكين، واتسعت حدقتاه، ووقف فجأة، وسار نحو الباب.

وأرادت جوانا أن توقفه، رفعت يدها لتوقفه، وانفرج فمها في رعب. ومضت لحظة طويلة وكينو يحملق في الظلمة القابعة خارج المنزل، ثم خرج. وسمعت جوانا الحركة المفاجئة، والصراع المزمجر، والضربة. وتجمدت لحظة من الرعب، ثم انحسرت شفتاها عن أسنانها فصارت أشبه بشفتي قطة: ووضعت كويوتيتو على الأرض، والتقطت صخرة من مكان النار، واندفعت إلى الخارج، غير أن كل شيء كان قد انتهى. كان كينو ملقى على الأرض، يحاول جاهداً أن ينهض، ولم يكن هناك أحد غيره، لم يكن هناك غير الظلال، وغير كر الأمواج وفرها، وغير الحفيف المنبعث من كل ما هو بعيد. غير أن الشر ربض في كل مكان، اختفى وراء السور المصنوع من أعضاء الشجيرات، وانكمش في الظل بالقرب من المنزل، وتعلق في الهواء.

وألقت جوانا بصخرتها، وأحاطت كينو بذراعيها وساعدته على الوقوف على قدميه وأسندته وهو يدخل المنزل. كان الدم ينزف من رأسه، وكان هناك جرح غائر كبير في خده، يمتد من أذنه حتى ذقنه، جرح عميق ينزف دماً. ولم يكن كينو في كامل وعيه. كان يهز رأسه يميناً ويساراً. أما قميصه فممزق مفتوح، وأما ملابسه فمنزوعة إلى حد ما. وأجلسته جوانا على حصير نومه، ومسحت بقميصها الدم الثخين فوق وجهه. وأتت له بالشرات المكسيكي في إبريق صغير، وما زال يهز رأسه ليطرد الظلام.

وسألته جوانا "من؟"

وقال كينو "لست أدري. لم أر".

أحضرت جوانا الماء المصنوع من الطين وغسلت الجرح الغائر في وجهه، بينما أخذ هو يحملق أمامه في غيبوبة.

وصاحت "كينو، زوجي" وكان عيناه تحملقان ولا تنظران إليها.

"كينو، أتسمعني؟"

وقال في شرورد "أسمعك"

"كينو، هذه اللؤلؤة مشئومة، دعنا نقضي عليها قبل أن تقضي هي علينا، دعنا نحطمها بين صخرتين: دعنا نرميها مرة أخرى في البحر، موطنها. كينو، إنها مشئومة، إنها مشئومة!"

وبينما هي تتكلم عاد النور من جديد إلى عيني كينو، وصدر منهما وهرج وحشي، وتصلبت عضلاته، وقويت عزيمته.

وقال "لا. لأحاربن هذا. ولأنتصرن. ولنحصلن على فرصتنا" وخبط حصير النوم بقبضة يده. وقال "لن ينتزع أحد منا حظنا السعيد". وبعدها هدأت نظراته ورفع يده – في رقة – إلى كتف جوانا. وقال "صدقيني، إنني رجل". وارتسمت على وجهه ملامح الدهاء.

وقالت في صوت مبحوح "كينو، إنني خائفة. والرجل قد يلاقي حتفه: دعنا نرمي اللؤلؤة في البحر".

وقال في خشونة "صه. إنني رجل. اسكتي". وسكتت، فصوته أمر يطاع. وقال "دعينا ننام قليلاً. وفي خيوط النور الأولى سنبدأ رحلتنا. أتخافين من الذهاب معي".

"لا، يا زوجي"

ونظر إليها نظرات حنونة دافئة، ولمست يده خدها.

وقال "دعينا ننم قليلاً".

الفصل الخامس

أخيراً صحا القمر قبل صياح أول الديكة. وفتح كينو عينيه في الظلمة، فأحس بحركة بالقرب منه، غير أنه لم يتحرك. لم يكن هناك غير عينيه اللتين تفتشان في الظلمة، وعلى الضوء الشاحب للقمر الذي تسلل خلال ثقوب المنزل المصنوع من أغصان الشجيرات ولمح كينو جوانا وهي تنهض بجواره في هدوء. ورآها تتجه نحو النار. كانت تتحرك في حرص بالغ، لدرجة أنه لم يسمع – حين حركت الصخرة الموجودة في مكان النار – غير صوت خافت جداً.

وفجأة انسابت نحو الباب كما تنساب الظلال. وقفت لحظة بجانب الصندوق المعلق، حيث يرقد كويوتيتو، ثم لاحت كالشبح الأسود، عند مدخل الباب، ولم تمض لحظة إلا وكانت قد اختفت.

وثار الغضب في أعماق كينو. ونهض قائماً على قدميه وتبعها في هدوء كما ذهبت هي في هدوء، واستطاع أن يسمع وقع خطواتها السريعة وهي تتجه نحو الشاطئ. واقتفى أثرها، وتوهج عقله من الغضب. وكانت قد تركت صفوف المنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات وأخذت

تتعثر فوق الصخور الصغيرة، متجهة إلى الماء ثم سمعت وقع خطواته وراءها، فانفلتت تجري. وارتفع ذراعها ليقذف باللؤلؤة، ولكنه قفز نحوها وأمسك بذراعها وانتزع منها اللؤلؤة. وضربها على وجهها بقبضة يده المطبقة، وسقطت بين الصخور، ورفسها في جانبها. واستطاع أن يرى الأمواج الصغيرة – في الضوء الشاحب – وهي تصطف فوقها، وطرف ثوبها وهو يطفو في الماء، ثم يلتصق برجليها حين ينحسر الماء.

ونظر إليها كينو وهي ملقاة على الأرض وقد كشر عن أسنانه، وصدر من فمه فحيح كفحيح الأفعى، وحملقت جوانا في وجهه بعينين واسعتين لا تعرفان الرعب، وكأنها نعجة في يد الجزار. كانت تعرف أنه قد يقتل، ولا ضير من ذلك، لقد رضيت بالقتل، ولن تقاوم، بل ولن تحتج غير أن الغضب الجامع انحسر عنه، وحل محله اشمئزاز وامتعاض وابتعد عنها وقطع أرض الشاطئ واخترق المنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات. وكان الانفعال قد أصاب حواسه ببلادة.

وسمع الحركة المفاجئة، وأخرج سكينه وسددها نحو جسم أسود، وأحس بسكينه يصيب مقتلاً، وفجأة أحس بمن يوقعه على قدميه بالقوة، ثم يطرحه بعد ذلك أرضاً. وتسللت أصابع شرهة إلى ملابسه، وأخذت أصابع مجنونة تفتشه، أما اللؤلؤة التي سقطت من يده فقد كانت ملقاة وراء صخرة عند الممر، وكانت تلتمع، وأخذت تتوهج في الضوء القمري الناعم.

وانتزعت جوانا نفسها من بين صخور على حافة الماء. كان وجهها يعبر عن الألم الذاهل، وكان جنبها يؤلمها. وركعت على ركبتيها عدة لحظات لتحفظ توازنها، والتصق بجسدها طرف ردائها المبتل. لم تكن تحس بأنها غاضبة من كينو، لقد قال "أنا رجل" وكان لهذا بعض الدلالات المعينة بالنسبة لجوانا. فمعناه أنه نصف مجنون ونصف إله. ومعناه أن كينو قد يقف بقواه في وجه جبل، ويقف بقواه أمام البحر، وعرفت جوانا – بروح المرأة – أن الجبل يبقى بينما يتحطم الإنسان، وأن البحر يثور بأمواجه بينما يهوى الرجل إلى قاعه. غير أن هذا هو الذي يجعل منه إنساناً، نصف مجنون ونصف إله، وجوانا في حاجة إلى رجل، وهي لا تستطيع أن تعيش بدون رجل. وبالرغم من أن الاختلافات بين الرجل والمرأة قد تحيرها إلا أنها ألمت بها، وسلمت بوجودها، واحتاجت إليها. إنها ستتبعه بالطبع، لا شك في هذا. فأحياناً تستطيع المرأة بصفاتها: بعقلها، حذرها، بحبها للبقاء – أن تخترق رجولة كينو، وبذلك تنقذه وتنقذ نفسها. ووقفت بصعوبة على قدميها، وغمست راحتيها المنكمشتين في ماء الأمواج الصغيرة، وغسلت وجهها الدامي بالماء المالح المؤلم، وبعد ذلك أخذت تزحف على الشاطئ وراء كينو.

عبرت السماء، من الجنوب، مجموعه متراصة من السحب السريعة، وأخذ القمر يغطس في ثنايا السحب، ثم يبرز منها، وهكذا كانت جوانا تسير في الظلمة حيناً ثم في النور حيناً آخر. كان ظهرها محنياً من وطأة

الألم، وكانت مطأطئة الرأس. واخترقت صف المنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات وقد غطت السحب القمر، وعندما تطلع القمر إلى الأرض لمحت وميض اللؤلؤة العظيمة في الممر القائم وراء الصخرة، وهبطت على ركبتيها والتقطتها، وغاب القمر في ظلام السحب مرة أخرى. وظلت جوانا على ركبتيها تفكر: هل تذهب إلى البحر وتكمل مهمتها؟ وبينما هي تفكر ظهر ضوء القمر مرة أخرى ولمحت جسمين أسودين يرقدان على أرض الممر البعيد. وقفزت إلى الأمام، وكان الأول كينو، أما الثاني فرجل غريب ينزف من حلقه سائل قاتم براق.

وتحرك كينو في بطء، وكانت حركات ذراعيه ورجليه أشبه بذراعي ورجلي حشرة منسحقة. وخرجت من فمه أصوات غليظة غير واضحة، والآن، وفي لمحة خاطفة، عرفت جوانا أن حياتها القديمة اختفت إلى الأبد. أقنعها بذلك وجود جثة رجل في الممر، ووجود سكين كينو الملقى بجانبه وقد غطاه الدم. لقد كانت جوانا تحاول – طيلة الوقت – أن تنقذ جزءاً من السلام القديم، جزءاً من الزمن السابق على ظهور اللؤلؤة. غير أن كل شيء قد ذهب الآن، ولا أمل في استعادته. وعندما تحققت من ذلك، نبذت هذا الماضي على الفور. لم يكن أمامها إلا أن تنقذه وتنقذ نفسها.

والآن، لقد تلاشى ألمها، تلاشت بلادتها. وبسرعة جذبت الرجل الميت من الممر وأخفته داخل شجيرة. وذهبت إلى كينو وبللت وجهه بطرف ردائها المبتل. وأخذت حواسه تعود إليه، وكان يئن.

وقال "لقد أخذوا اللؤلؤة. لقد فقدتها. انتهى كل شيء الآن. راحت اللؤلؤة".

وأخذت جونا تعمل على تهدئته كما لو كانت تهدئ طفلاً مريضاً. وقالت "صه. ها هي لؤلؤتك. عثرت عليها في الممر. أتسمعني الآن؟ ما هي لؤلؤتك. أتفهم؟ لقد قتلت رجلاً.. يجب أن نرحل سيبحثون عنا، أتفهم؟ يجب أن نرحل قبل ضوء النهار".

وقال كينو متضايقاً "لقد هوجمت. ضربت دفاعاً عن نفسي".

وسألته جوانا "أتذكر الأمس؟ هل تظن أن هذا سيهمهم؟ هل تذكر رجال المدينة. هل تعتقد أن دفاعك سينقذك؟"

وجذب كينو نفساً عميقاً وأخذ يناضل محاولاً التخلص من ضعفه.

وقال "لا. أنت على صواب. وقويت عزيمته وأصبح مرة أخرى رجلاً.

وقال "اذهبي إلى بيتنا وأحضري كويوتيتو – وأحضري كل ما نملك من الأذرة، سأسحب القارب (الكانوى) إلى الماء، وسنرحل.

والتقط سكينه، وغادرها. وسار متعثراً، نحو الشاطئ، ووصل إلى قارب، وعندما ظهر ضوء القمر مرة أخرى اكتشف أن هناك فجوة كبيرة في قاع القارب. وطغى عليه غضب متحجر، وأمده هذا الغضب بالقوة. والآن، ها هي الظلمة تطبق على أسرته، والآن، ها هي موسيقى الشر تملأ الليل، وتستقر فوق الأشجار المتشابكة، وتصرخ مع اصطفاف الموجه، ها هو

قارب جده، وقد تمت معالجته بالطلاء المرة بعد المرة، ثم ماذا؟ فجوة عميقة تخترقه. ذلك شر لم يتصوره أحد. آن قتل قارب خطيئة أكبر من خطيئة قتل الإنسان فالقارب لا ولد له، والقارب لا يستطيع أن يحمي نفسه، والقارب المجروح لا تلتئم جراحه. وامتزج غضب كينو بشيء من الأسى، غير أن هذا الغضب جعله أقوى من أن يتصدع. لقد استحال الآن إلى حيوان، حيوان يختبئ، ويهاجم، وهو لا يحيا الآن إلا ليحافظ على نفسه ويحافظ على أسرته. ولم يعد يشعر بالألم في رأسه. وقفز على الشاطئ، واخترق صف المنازل متجهاً إلى بيته المصنوع من أغصان الشجيرات، ولم تخطر على باله أبداً أن يأخذ قارب أحد جيرانه. لم يحدث أبداً أن تسلل هذا الخطر إلى رأسه، كما لم يحدث أبداً أن فكر في تحطيم قارب.

أخذت الديكة تؤذن، وأصبح الفجر على الأبواب. وتسلل دخان النيران المبكرة من خلال جدران المنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات، وامتلاء الجو بأول رائحة الفطائر المصنوعة من الأذرة. وكانت العصافير تقفز هنا وهناك، فوق أغصان الشجيرات. وأخذ القمر الهزيل يفقد ضياءه، وتجمعت السحب وتراكمت نحو الجنوب وهبت ريح جديدة فوق المصب، ريح عصبية لا تهدأ ثائرتها، ريح تحمل في أنفاسها رائحة عاصفة، وكانت هناك بوادر تغير، وقلق، في الهواء.

وأخذ كينو يهرول متجهاً إلى بيته وقد أحس بموجه من الفرح وهو غير مضطرب الآن، إذ ليس أمامه إلا شيء واحد يفعله، وامتدت يد

كينو، أولاً، إلى اللؤلؤة العظيمة المخبأة في قميصه، ثم إلى سكينه المتدلي تحت هذا القميص.

ورأى وميضاً ضئيلاً أمامه، وفجأة وبدون سابق إنذار – امتدت في الظلمة ألسنة طويلة مزمجرة من اللهب، وأضاءت الممر كتلة شاهقة من النار. وأخذ كينو يجري، إن النار في منزله، وهو يعرف ذلك. ويعرف أيضاً أن هذه المنازل قد تحترق وتتهاوى في لحظات قلائل. وبينا هو يجري هرول نحوه شخص، كان هذا الشخص جوانا التي حملت كويوتيتو بين ذراعيها وتشبثت بعباءة كينو في يدها. أخذ الطفل يئن من الفزع، أما عينا جوانا فكانتا متسعتين، مذعورتين: عرف كينو أن المنزل قد راح، ولم يسأل جوانا. انه يعرف كل شيء، بيد أنها قالت "لقد مزقوه، وحفروا أرضيته، حتى صندوق الطفل قلبوه، وعندما دخلت أشعلوا النار من الخارج".

وعلى ضوء النار الجامحة الصاعدة من المنزل المحترق اتضح وجه كينو. وتساءل "من؟"

وقالت "لست أدري. السود".

وفي تلك اللحظة أخذ الجيران يخرجون، متعثرين، من منازلهم وأخذوا يرقبون الشظايا الساقطة ويسحقونها حتى ينقذوا بذلك منازلهم، وفجأة أحس كينو بالخوف. لقد جعله النور يحس بالخوف. لقد تذكر الرجل الذي يرقد ميتاً تحت الشجيرة القائمة عند الممر، فجذب جوانا

من ذراعها، ووقفا في ظل بيت، بعيداً عن النور، فالنور خطر يتهدده. وفكر لحظة، ثم تحسس طريقه بين الظلال إلى أن وصل إلى منزل جوان توماس أخيه، وانفلت داخلاً من الباب وقد جذب جوانا وراءه. وتناهى إلى سمعه صراخ الأطفال وصياح الجيران، فلقد اعتقد أصدقاؤه أنه داخل المنزل المحترق.

يكاد منزل جوان توماس يشبه منزل كينو، فالمنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات تكاد تكون كلها واحدة، وكلها يجعل الضوء، والهواء، يتسللان من شقوقها، وهكذا استطاعت جوانا وكينو، وهما يجلسان في ركن منزل الشقيق، أن يلمحا ألسنة اللهب الراقص من خلال الحائط. لقد شاهدا الألسنة الشاهقة الغاضبة، ولمحا السقف وهو يهوى، وراقبا النار وهي تذوى بسرعة مثلما تذوى نيران الأغصان الصغيرة. وسمعا صيحات التحذير صادرة من أصدقائهما، وصرخة أبولونيا، زوجة جوان توماس، تلك الصرخة العالية الحادة. ذلك لأنها أقرب النساء إلى الأسرة، ومن ثم أخذت تندب وفاة الأسرة.

واكتشفت أبولونيا أنها ترتدي ثاني أزار جميل تملكه، ومن ثم اندفعت إلى منزلها لتلتقط أزارها الجديد الرائع. وبينا هي تبحث عنه في صندوق بجوار الحائط، انساب صوت كينو في هدوء "لا تصرخي يا أبولونيا. نحن بخير".

وتساءلت "كيف جئتم إلى هنا؟"

وقال "لا توجهي أسئلة. واذهبي الآن إلى جوان توماس واحضريه

هنا، ولا تخبر أحداً غيره. إن هذا يمنا يا أبولونيا".

وتوقفت، ويداها ممتدتان أمامها في عجز، ثم قالت: "سمعاً وطاعة يا شقيق زوجي".

وعاد معها جوان توماس بعد لحظات قلائل. وأوقد شمعة، واقترب منهما حيث يتكومان في ركن المنزل، وقال: "أبولونيا، اقفلي الباب، ولا تسمحي لأحد بالدخول". لقد كان جوان توماس الأخ الأكبر، وكانت بيده السلطة. وقال "والآن، ما الأمر يا أخي؟"

وقال كينو "هوجمت في الظلام. وفي المعركة قتلت رجلاً".

وتساءل جوان توماس بسرعة "من؟".

"لا أعرف. كل شيء أسود – كل شيء أسود، وكل شيء يجسم السواد"

وقال جوان توماس " إنها اللؤلؤة. هنا كشيطان في هذه اللؤلؤة. كان من الواجب أن تبيعها وتنقل الشيطان إلى غيرك. وقد يكون من المستطاع أن تبيعها حاليا لتشتري لنفسك السلام".

ولكن كينو يقول "أوه يا أخي، تعرضت لإهانة أعمق من حياتي كلها. فعند الشاطئ تحطم قاربي، واحترق بيتي، وعند الشجيرة يرقد رجل ميت، وليس هناك من طريق الهرب. لا بد أن تخفينا يا أخي"

ونظر كينو إلى جوان توماس عن قرب فلمح قلقاً عميقاً يتسلل إلى نظراته، وتوقع أن يرفض، فأحبط هذا الرفض بأن قال "لن نبقى طويلاً

سنبقى فقط إلى أن يرحل يوم ويظهر صباح جديد، وحينئذٍ سنرحل"

وقال جوان توماس "سأخفيك".

وقال كينو "لا أحب أن أعرضك للخطر. أعرف أنني مثل البرص الذي يقضي بوجوده على كل شيء. سأرحل الحياة، وستكون بعد ذلك في أمان".

وقال جوان توماس "سأحميك". ونادي "أبولونيا اقفلي الباب ولا تهمسي بأن كينو هنا".

وطيلة اليوم جلسوا ساكنين في ظلمة المنزل، وكانوا يسمعون صوت الجيران وهم يتحدثون عنهم. ومن خلال جدران المنزل استطاعوا أن يلمحوا جيرانهم وهم يفتشون الرماد لعلهم يجدون عظاماً. وبينما هم يقبعون داخل منزل جوان توماس سمعوا صوت جيرانهم عندما فوجئوا بأنباء القارب المكسور. وخرج جوان توماس إلى الجيران ليصرف عنهم شكوكهم، وأخذ يغرقهم بنظريات وآراء يتحدث فيها عما حدث لكينو وجوانا والطفل. وقال لأحدهم "أعتقد أنهم ساروا جنوباً بحذاء الساحل ليهربوا من الشر الذي لاحقهم". وقال لآخر "لن يترك كينو البحر أبداً. وقد يكون من الجائز أنه عثر على قارب آخر" وقال "إن أبولونيا مريضة لشدة ما حزنت".

وفي ذلك اليوم هبت الريح وضربت الخليج ومزقت الأعشاب الممتدة على الشاطئ، وفي ذلك اليوم صرخت الريح بين صفوف المنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات، ولم تكن القوارب السابحة فوق الماء في أمان. وحينئذٍ قال جوان توماس لجيرانه "لقد ذهب كينو. وإذا كان قد

اتجه إلى البحر، فلا شك أنه في القاع الآن". وبعد كل رسالة بين الجيران يعود جوان توماس وقد استعار منهم شيئاً، فقد أحضر حقيبة صغيرة مصنوعة من القش وبها بقول حمراء، كما أحضر قلة مملوءة بالأرز الناضج. واستعار فنجاناً مملوءاً بالفلفل الجاف. وكتلة من الملح، كما أحضر سكيناً ثقيلاً طوله ١٨ بوصية، يصلح للاستعمال كفأس صغير، وكآلة، وسلاح، وعندما رأى كينو هذا السكين التمعت عيناه، وداعب حد السكين، واختبر حافته بإبهامه.

وصرخت الرياح وهي تهب على الخليج، وأحالت الماء إلى زبد أبيض وغرقت الأشجار المتكاثفة كما لو كانت قطيعاً مذعوراً، وثار من اليابسة غبار رملي جميل وتعلق فوق البحر في سحابة خانقة. وساقت الريح السحب، ونظفت صفحة السماء، وحملت رمال اليابسة كما لو كانت هذه الرمال ثلجاً.

وعندما اقترب المساء تحدث جوان توماس مع أخيه طويلاً. "والى أين ستذهب".

وقال كينو "إلى الشمال. سمعت أن هناك مدناً في الشمال".

وقال جوان توماس "تجنب الشاطئ. إنهم سيؤلفون من بينهم جماعة تبحث على طول الشاطئ. سيبحث عنك رجال المدينة. أما زالت اللؤلؤة معك؟".

وقال كينو "إنها معي. وسأحتفظ بها. ربما كان من الممكن أن

أتخلى عنها كهدية، غير أنها الآن مصيري التعس، وحياتي، وسأحتفظ بها". وكانت عيناه قاسيتين، وحشيتين، مريرتين.

وبكى كويوتيتو بصوت خفيض، وقرأت جوانا فوق رأسه بعض التعاويذ لتسكته.

وقال جوان توماس "الريح طيبة. ولن يكون هناك أثر للأقدام".

وبهدوء غادرا المنزل في الظلام، قبل أن يشرق القمر. ووقفت الأسرة جامدة في منزل جوان توماس. كانت جوانا تحمل كويوتيتو فوق ظهرها وقد غطته بدثار رأسها وعلقته فيه، ونام الطفل وقد أراح خده على كتفها. غطى دثار الرأس الطفل، والتف طرف منه حول أنف جوانا ليحميها من هواء الليل الضار، وعانق جوان توماس شقيقه بكلتا ذراعيه، وقبله على الوجنتين.

وقال "اذهب يرعاك الله، وكأنه يشيعه إلى مقره الأخير". ألن تتخلى عن اللؤلؤة؟"

رد كينو "لقد أصبحت اللؤلؤة روحي. وإذا تخليت عنها فقدت روحي ورعاك الله أنت أيضاً".

الفصل السادس

هبت الريح القاسية العنيفة، وأخذت تقذفهما بقطع من الأغصان، وذرات من الرمال، وبالصخور الصغيرة، وجذبت جوانا وكنيو أطراف ملابسهما حولهما، وغطى كل منهما أنفه، وخرجا إلى العالم الكبير. كانت السماء رائقة، فقد نظفتها الريح، أما النجوم فكانت باردة على رقعة السماء السوداء. أخذا يسيران بحذر، ويتفاديان قلب المدينة، فقد يراهما هناك نائم على قارعة الطريق عند عتبة باب من الأبواب. ذلك لان المدينة انكمشت على نفسها محتمية بذلك من الليل، ولو جاس إنسان خلالها تحت ستار الليل لرآه أهلها.

أخذ كينو يسير في الطريق المتعرج عند حافة المدينة، ثم اتجه ناحية الشمال، اتجه ناحية الشمال مستهدياً في ذلك بالنجوم، وأخيراً وجد الطريق الضيق المملوء بالرمال، وهو الطريق الذي يعبر الريف الزاخر إلى لوريتو – مكان العذراء صاحبة المعجزات.

كان كينو يحس بوقع الرمال وهي تهب على ركبتيه، وكان يشعر إذ

ذاك بارتياح، فمعنى هذا أن قدميه لن تتركا أثراً في الرمل. وتعرف على الطريق الضيق الممتد عبر الريف المخضوضر، عن طريق النجوم التي أرسلت بصيصاً ضئيلاً من النور. وكان كينو يسمع أيضاً وقع خطى قدمي جوانا وهي تسير خلفه كان يسير بسرعة، وبهدوء، وكانت زوجته تهرول خلفه حتى لا تتخلف عنه.

ثمة شيء عريق في القدم يتحرك في أعماق كينو. فبالرغم من خوفه من الظلمة، ومن الشياطين التي تجوب الليل، أحس بموجة من الحبور، ثمة شيء حيواني يتحرك في أعماقه، وبفضل هذا الشيء كان حذراً، ومتيقظاً، وخطيراً، ثمة شيء قديم يشتعل في أعماقه، شيء انحدر من ماضي شعبه. كانت الريح تصفع ظهره، والنجوم أمامه تهديه. والريح تصفر وتدور في الشجيرات والأسرة تسير على وتيرة واحدة، ساعة إثر ساعة. لم يمروا على أحد، ولم يشاهدوا أحداً. وأخيراً، وعن يمينهم، أشرق القمر الشاحب، وعندما صعد إلى قبة السماء ماتت الريح وساد السكون الأرض.

والآن، أصبح في مقدورهما أن يلمحا الطريق الضيق الممتد أمامهما وقد تركت فيه عجلات العربات آثارها التي غطاها الرمل. والآن وقد خمدت الريح ستنطبع آثار أقدامهما، غير أن بينهما وبين المدينة مسافة كبيرة في الوقت الحالي، وربما لم يلمح أحد ما يتخلف عنهما من آثار. أخذ كينو يسير في حرص فوق آثار إحدى العجلات، وحذت جوانا حذوه. وفي الصباح ستسير عربة كبيرة ناحية المدينة وبذلك تمسح أي أثر لأقدامهما.

وطيلة الليل كانا يسيران، ولم تتغير سرعة خطواتهما على الإطلاق. ومرة واحدة فقط استيقظ كويوتيتو، ورفعته جوانا أمامها وأخذت تلاطفه إلى أن استغرق في النوم ثانية، وكانت شرور الليل تحوم حولهما. والثعالب الصغيرة تصرخ وتضحك بين فروع الشجيرات، وفوق رأسيهما يصيح البوم ويصدر من فمه النعيق. ومرة انساب حيوان كبير مبتعداً، في تثاقل، بينما أخذ النبات يتحطم من وقع أقدامه. وأمسك كينو بمقبض السكين الكبير، وأحس وهو يمسك بالمقبض أنه في أمان.

وموسيقي اللؤلؤة قد انتصرت في رأسي كينو، بينما صاحبتها من بعيد أغنية الأسرة الوادعة، واندمج اللحنان مع الوقع الهادئ للأقدام التي تغوص في التراب منتعلة صندلاً. ومضى الليل بأكمله وهما سائران، وعندما بدت تباشير الفجر اقترب كينو من حافة الطريق باحثاً عن مخبأ يحتميان فيه طيلة النهار. واكتشف ضالته المنشودة على مقربة من الطريق: رقعة صغيرة من الأرض يبدو أن الظباء قد رقدت فيها في يوم من الأيام، وقد احتجبت هذه الرقعة وراء مجموعة كبيرة من الأشجار الجافة الهشة التي تحف بالطريق. وعندما جلست جوانا وبدأت تعني بالطفل عاد كنيو إلى الطريق مرة أخرى. وقطع فرعاً من النبات، وبحرص أخذ يزيل آثار الأقدام التي انحرفت عن الطريق متجهة إلى رقعة الأرض. ثم لاحت تباشير النهار وإذا به يسمع قرقعة إحدى العربات، وانكمش عند جانب من الطريق وأخذ يرقب العربة الثقيلة ذات العجلتين وهي تمر وقد

جرتها ثيران كسولة متثاقلة. وعندما اختفت العربة عن الأنظار عاد مرة أخرى إلى الطريق وحملق في آثار العجلات فوجد أن آثار الأقدام قد اختفت. ومرة أخرى أزال الآثار التي تخلفت منه ورجع إلى جوانا.

وأعطته الفطائر الناعمة المصنوعة من الذرة، وهي الفطائر التي أعدتها أبولونيا لهما، وبعدة فترة استغرقت في النوم مدة قصيرة، أما كينو فقد جلس على الأرض وأخذ يحدق أمامه، في التربة. وأخذ يرقب النمل وهو يتحرك، كان هناك صف صغير يمر بالقرب من قدمه، ووضع قدمه أمام هذا الصيف معترضاً طريقه، غير أن صف النمل تسلق قدمه واستأنف سيره، وترك كينو قدمه كما هي وظل يرقب النمل وهو يتحرك فوقها.

وأشرقت الشمس، وكانت ساخنة. وهما ليسا الآن على مقربة من الخليج، والهواء هنا جاف، حار لدرجة أن الشجيرات أخذت "تطرقع" من الحرارة، وصعدت منها رائحة طيبة، وعندما ارتفعت الشمس إلى قبة السماء واستيقظت جوانا، أخبرها كينو بأشياء تعرفها هي من قبل.

قال لها وهو يشير إلى إحدى الأشجار: "احذري هذا النوع من الأشجار هنا. لا تلمسيه لأنك لو فعلت ثم لمست عينيك فستصابين بالعمى. واحذري من الشجرة التي تنزف. أترينها، هناك؟ لو قطعت هذه الشجرة تدفق منها دم أحمر، وكان هذا نذيراً بسوء الطالع". وأومأت برأسها وابتسمت ابتسامة خفيفة، فقد كانت تعرف هذه الأشياء.

وتساءلت: "هل سيتبعوننا؟ هل تعتقد أنهم سيحاولون العثور علينا؟".

وقال كينو. "سيحاولون. أن أي واحد منهم يعثر علينا سيأخذ اللؤلؤة، أوه، إنهم سيحاولون".

ثم تقول جوانا: "ربما كان المشترون على حق، وأن اللؤلؤة لا قيمة لها. ربما كنا واهمين طيلة الوقت".

وأدخل كينو يده في ملابسه وأخرج اللؤلؤة، وترك أشعة الشمس تتراقص فوقها إلى أن توهجت في عينيه. وقال: "لا، لو كانت عديمة القيمة لما حاولوا سرقتها".

هل تعرف من الذين هاجموك؟ أهم المشترون؟"

وأجاب: "لست أدري. لم أستطع رؤيتهم".

أخذ يحملق في لؤلؤته ليعثر على حلمه. وقال: "عندما نبيعها في النهاية سأحصل على بندقية" وحملق في السطح اللامع باحثاً عن بندقية، غير أنه لم يلمح سوى جثة سوداء مكومة على الأرض والدم الملتمع يتساقط من حلقها. وأسرع يقول: "سنتزوج في كنيسة هائلة". وصاح في جنون: "لا بد أن يتعلم ابننا كيف يقرأ" وعلى سطح اللؤلؤة شاهد وجه كويوتيتو، وجه متورم محموم، من فعل الدواء.

وألقى كينو باللؤلؤة بين طيات ثيابه، وصارت موسيقى اللؤلؤة موسيقى مشئومة ترن في أذنيه، وصاحبتها موسيقى الشر.

وأرسلت الشمس المحرقة لهيبها على الأرض، ولجأ كينو وجوانا

إلى ظل الشجيرة المبرقش، بينما أخذت الطيور الرمادية الصغيرة تحجل على الأرض في الظل. وتمدد كينو تحت حرارة النهار وغطى عينيه بقبعته ولف وجهه بملاءته محتمياً بها من الذباب، ونام.

غير أن جوانا لم تنم، لقد جلست ساكنة كقطعة من الحجر، أما وجهها فكان هادئاً. وما زال فمها متورماً من أثر ضربة كينو. والذباب الكبير يطن حول الجرح الموجود في ذقنها بيد أنها جلست ساكنة وكأنها حارس مكلف بالحراسة، وعندما استيقظ كويوتيتو وضعته أمامها على الأرض وأخذت ترفيه وهو يلوح بذراعيه ويرفس بقدميه، وابتسم وأخذ يناغيها حتى ابتسمت هي أيضاً. والتقطت من الأرض فرعاً صغيراً وأخذت تداعبه، وأعطته ماء من القرعة الموجودة في الربطة التي تحملها.

وتحرك كينو وهو يحلم، وصاح في صوت خشن، وتحركت يده وكأنه يتشاجر. ثم أخذ يئن، وجلس فجأة وقد اتسعت حدقتاه وفتحنا أنفه، وأخذ يصيخ السمع، ولم يصل أذنيه سوى طرقعة الأشجار من فعل الحرارة، وسوى الفحيح الذي يصدر من المسافات البعيد.

وتساءلت جونا: "ماذا حدث؟"

وقال: "سكوتاً".

"لقد كنت تحلم".

"ربما. غير أن ثائرته لم تهدأ، وعندما أعطته فطيرة الذرة من الربطة

التي تحتفظ بها توقف في مضغه ليصيخ السمع. كان قلقاً متوتر الأعصاب. وأدار رأسه ونظر من فوق كتفه، ورفع السكين الكبير وتحسس حده. وعندما أخذ كويوتيتو يتناغى وهو على الأرض قال كينو: "أسكتيه".

وتساءلت جوانا: "ماذا حدث؟"

"لست أدري"

ومرة أخرى أخذ يصيخ السمع، وفي عينيه ضوء حيواني. وفجأة نهض قائماً، في هدوء، وانحنى، وأخذ يتسلل خلال الشجيرات متجهاً إلى الطريق. غير أنه لم يعبره بقدميه، وإنما زحف واحتمى بشجرة شوكية، وأخذ يطل على الطريق الذي جاء منه هو وزوجته.

وحينئذٍ رآهم وهم يتحركون. وتصلب جسده، ثم خفض رأسه وأخذ ينظر من تحت فرع من الفروع متساقطة واستطاع أن يرى من بعيد ثلاثة أشخاص، اثنان يمشيان على الأرض وواحد قد امتطى صهوة جواد. غير أنه كان يعرف جيداً من هم، وسرت في جسده رعدة الخوف. لقد كانوا بعيدين عنه، غير أنه استطاع أن يلمح الرجلين اللذين يتحركان ببطء، وقد انحنيا على الأرض. ثم يتوقف أحدهما ويتفحص الأرض، بينما ينضم إليه الآخر. لقد كانوا من قصاصي الأثر، وفي مقدورهما أن يقتفيا أثر الغنم الوحشي في مسالك الجبال الصخرية. إن لهما حساسية الكلاب. والآن، ربما خرج هو أو جوانا – في موضع من المواضع – عن خطوط العربة، وهؤلاء الرجال القادمون من قلب البلاد، هؤلاء العائدون يستطيعون أن

يتكهنوا عن أسرار قشة مهشمة أو كومة صغيرة منهارة من التراب. وخلف الرجلين، وفوق صهوة الجواد رجل أسود، قد غطى أنفه بملاءة. وفوق سرجه كانت هناك بندقية تلتمع تحت أشعة الشمس.

ورقد كينو ساكناً لا يتحرك، وكأنه فرع من فروع شجرة. بل ولم يكن يتنفس، وتحركت أنظاره إلى المكان الذي أزال منه آثار الأقدام. إن آثار الإزالة قد تهدي قصاصي الأثر. إنه يعرف هؤلاء الصيادين القادمين من قلب البلاد. إنهم يعيشون في بلد ليس به صيد كبير، غير أنهم يقتاتون من قدرتهم على الصيد، وهم يريدون الآن اصطياده، لقد أخذ الرجلان يهرولان فوق الأرض كالحيوانات، ووجدا علامة، وانحنيا فوقها، بينما توقف راكب الحصان في انتظارهما.

وصدر من قصاصي الأثر عواء قصير، كما لو كانا كلبين يتعقبان رائحة شهية. وببطء أمسك كينو بسكينه الكبير وجعله في وضع استعداد، كان يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل. فلو عثر قصاصو الأثر على المكان الذي أزال منه كينو آثار الأقدام فعليه أن يقفز ليهبط على راكب الحصان، ليقتله بسرعة وينتزع منه بندقيته. كانت هذه هي فرصته الوحيدة، ولا فرصة غيرها في العالم.

وبينما أخذ الثلاثة يقتربون حفر كنيو فجوات صغيرة بأصابع قدميه حتى يستطيع أن يقفز دون سابق إنذار، وحتى لا تنزلق قدماه. ومن خلال فرع الشجرة الساقط لم يكن يرى سوى صورة ضئيلة.

وسمعت جوانا وقع سنابك الحصان وهي في مخبئها، وخرج من فم كيوتيتو صوت أشبه بصوت الماء المتدفق من فوهة القلة، والتقطته على عجل وغطته بمئزرها وأعطته ثديها، وكان أن أخلد إلى الصمت.

وعندما أصبح قصاصو الأثر على مقربة من كينو لم يكن يرى سوى أرجلهم وأرجل الحصان من تحت الفرع الساقط، رأي كينو أقدام الرجال السوداء التي تشبه قرون الماشية، ولمح ثيابهم البيضاء الممزقة، كما سمع قرقعة جلد السرج وصليل الغمازات المثبتة في قدمي الراكب. وتوقف الرجلان عند المكان الذي أزال منه كينو آثار الأقدام، وأخذا يدرسانه، وتوقف راكب الحصان أيضاً. وأمال الحصان رأسه إلى الوراء وفي فمه اللجام، وارتطم اللجام بلسانه وأحدث صوتاً، وصدر من أنف الحصان شخير، وعندئذٍ استدار قصاصو الأثر السود ناحية الحصان، وأخذا يتفحصانه ويرقبان أذنيه.

لم يكن كينو يتنفس، أما ظهره فكان منحنياً بعض الشيء، بينما برزت عضلات ذراعيه ورجليه من أثر التوتر، وعلى شفته العليا انساب خط من العرق. وانحنى الرجلان على أرض الطريق فترة طويلة، وبعد ذلك أخذا يتحركان ببطء ويدرسان الأرض الممتدة أمامهما، وتحرك راكب الحصان وراءهما. أخذ الرجلان يهرولان، ثم يتوقفان، ويتفحصان الأرض، ويهرولان من جديد، وعرف كينو أنهم لا بد سيعودون. إنهم سيجوسون في الطرق باحثين، منقبين، مائلين بأجسادهم على الأرض،

غير أنهم سيعودون – إن عاجلاً أو آجلاً – إلى حيث يختفي كينو وأسرته بمنأى عن العيون.

وانساب إلى الوراء دون أن يعبأ بإزالة ما تخلف عن قدميه من آثار. كان من المستحيل عليه أن يزيل كل شيء كانت هناك علامات كثيرة جداً، وفروع أشجار مهشمة كثيرة جداً وأماكن مخدوشة، وأحجار أزيلت من مواضيعها. والآن سيطر الذعر على كينو، سيطر الذعر الذي يهيب به أن يلوذ بالفرار. سيعثر قصاصو الأثر على مكانه، كان على يقين من هذا. لم يكن هناك من مهرب، إلا عن طريق الهرب نفسه. وانحرف مبتعداً عن الطريق، وفي سرعة وهدوء عاد إلى المكان الذي اختبأت فيه جوانا. وتطلعت إليه في تساؤل.

وقال: "قصاصو أثر. تعالى!"

وفي هذه اللحظة اجتاحته موجة من العجز، ومن اليأس، وخلا وجهه من كل تعبير، وصارت عيناه حزينتين. "ربما تحتم على أن أدعهم يأخذونني".

وفي الحال نهضت جوانا واقفة على قدميها، ووضعت يدها على ذراعه، وصرخت في صوت خشن قائلة: "إن اللؤلؤة معك. هل تظن أنهم سيعودون بك حياً لكي يقال عنهم أنهم سرقوها؟"

وفي ضعف أخذ يبحث بيده تحت ملابسه، حيث خبأ اللؤلؤة. وقال بصوت هزيل: "إنهم سيعثرون عليها".

وقالت: "تعال... تعال!"

ولم يتحرك، وحينئذٍ سألته: "هل تظن أنهم سيتركونني حية حينئذٍ؟ هل تظن أنهم سيتركون الصغير حياً؟"

وتغلغل حديثها في رأسه، وارتسمت ملامح الغضب على شفتيه، وأصبحت عيناه وحشيتين مرة أخرى، وقال: "تعالى. سنذهب إلى الجبال. ربما لم يعثروا علينا ونحن بين الجبال".

وبجنون أخذ يجمع الأوعية والحقائب الصغيرة، وهي كل ما يملكانه. وسار كينو وهو يحمل ربطة في يده اليسرى، غير أن السكين الكبير كان يتأرجح جيئة وذهاباً في يده اليمنى. وأزاح فروع الشجيرة حتى تمر جوانا، وأسرعا ناحية الغرب حيث الجبال الصخرية الشاهقة. وأخذا يهرولان بسرعة وهم يجتازان النباتات المتشابكة الكثيفة. كان فراراً يسيطر عليه الذعر. ولم يحاول كينو أن يخفي ممره عن العيون، كان يهرول، ويركل الصخور بقدميه، وينزع الأوراق – التي ستفضح سره – عن الأشجار الصغيرة. وسلطت الشمس أشعتها القاسية على الأرض الجافة المتشققة، لدرجة أن النبت أخذ يصدر أصوات الاحتجاج، ولكن، كانت هناك في الأفق تلك الجبال الجرانيتية العارية، المنبثقة من الصخور الصغيرة المفتتة والصاعدة تجاه السماء وكأنها صخرة واحدة. كان كينو يجري مولياً وجهه شطر المرتفعات، تماماً كما تفعل كل الحيوانات تقريباً حينما يطاردها مطارد.

كانت أرضاً بلا ماء ينتشر فيها نبات الصبار الذي يقدر على اختزان الماء، وتنتشر فيها الشجيرات ذات الجذور الطويلة التي تتعمق في باطن الأرض سعياً وراء شيء من الرطوبة، والتي تستطيع أن تبقى حية على النذر اليسير. لم تكن هناك تربة عند مواطئ الأقدام، وإنما صخور مهشمة، مقسمة إلى مكعبات صغيرة، وكانت هناك كتل ضخمة لا يحيط بها ماء. ومن بين الصخور تمت مجموعات من العشب الحزين الجاف، عشب انبثق بعد أمطار واحد، ثم نما، وأنت بذوره، ومات. أما الضفادع ذات القرون فأخذت ترقب الأسرة وهي تسير، وتدير رءوسها الصغيرة المركزية التي تشبه رأس التنين. وبين الفينة والفينة ينتاب الذعر أرنباً ضخماً فيقفز هارباً ويختبئ وراء أقرب صخرة. كان الحرب بموسيقاه وأصواته – يخيم على هذه الأرض المجدبة، وعند الأفق كانت الجبال الصخرية ترحب بالقادمين وتعدهم بالنجاة من هذا الحر.

وهكذا هرب كينو. كان يعرف ماذا سيحدث. إن قصاصي الأثر سيسيرون في الطريق لمسافة قصيرة ثم يكتشفون أنهم تركوا البقعة المنشودة وراءهم، وسيعودون، وسينقبون ويتفحصون، ولن تمضي فترة طويلة إلا ويعثرون على المكان الذي استراح فيه كينو وجوانا. ومن هناك سيسهل عليهم أن يتعقبوه.. ستهديهم الصخور الصغيرة، والأوراق التي تساقطت على الأرض، والأغصان المتنوعة، والأماكن المخدوشة التي انزلقت عندها الأقدام. كان في مقدور كينو أن يتصور هؤلاء الرجال في

ذهنه وهم ينزلقون عبر الممر، ويصدرون أصواتً كأصوات الكلاب عندما يرون شيئاً يهمهم، بينما سار وراءهم رجل يمتطي جواداً، رجل أسود متحفظ في اهتمامه، يمسك ببندقية. وهو لن يقوم بمهمته إلا في النهاية، فهو لن يعود بكينو وجوانا. أوه، الآن أخذت موسيقى الشر تعزف عزفاً صاخباً في رأس كينو، يصاحبها في عزفها عواء الحرارة، وفحيح الأفاعي، ذلك الفحيح ذو الرنين البارد. لم تكن موسيقى الشر، في تلك اللحظة، جبارة هائلة، وإنما كانت تعزف بطريقة سرية، وبصوت مسموم. أما ضربات قلبه فكانت بمثابة الإيقاع لهذه الموسيقى، كما كانت تمدها بالألحان الهادئة الخافتة.

وبدأ الطريق يرتفع شيئاً فشيئاً، وبارتفاعه بدأت الصخور تتضخم شيئاً فشيئاً. غير أن كينو حقق الآن شيئاً من البعد بين أسرته وقصاصي الأثر، واستراح عند أول مرتفع. واعتلى صخرة عظيمة ونظر إلى الوراء عبر الأرض المتوهجة، غير أنه لم يشاهد أعداءه، بل لم يشاهد الفارس الطويل الذي يجوس بحصانه بين الشجيرات. وجلست جوانا القرفصاء مستظلة بالصخرة. ورفعت زجاجة الماء إلى شفتي كويوتيتو، فأخذ يمتص الماء بنهم، بلسانه الصغير الجاف. وعندما عاد كينو رفعت بصرها نحوه، ورأته وهو يتفحص عقبتيها اللذين أصابتهما الصخور والشجيرات بالقطوع والخدوش، وسرعان ما قامت بإخفائهما بطرف ردائها. ثم ناولته الزجاجة، غير أنه هز رأسه علامة الرفض. كانت عيناها تتلألآن في وجهها

المتعب. وبلل كينو شفتيه المتشققتين بلسانه.

وقال "جوانا، سأمضي في طريقي وستختبئين أنت. سأجعلهم يقتفون أثرى حتى أصل إلى الجبال، وعندما يتركونك وراءهم عليك أن تتجه شمالاً، إلى لورينو أو إلى سانتا روزاليا. وعندئذٍ سأعود إليك، إذا استطعت أن أفلت منهم. أنه الطريق الوحيد للنجاة".

وحدقت في عينيه ملياً، واستغرق تحديقها لحظة. وقالت "لا. سنذهب نحن معك".

ورد في خشونة "أستطيع أن أسرع بمفردي. ستعرضين الصغير أخطر أكبر إذا ذهبت معي".

وقالت جوانا "لا".

وقال "بل لا بد. إنه الحل السليم، وعلاوة على هذا تلك هي رغبتي".

وقالت جوان "لا".

وعندئذٍ أخذ يفتش في وجهها عن بادرة ضعف، عن بادرة خوف أو تردد، لم يكن في وجهها شيء من هذا. كانت عيناها تبرقان جداً. ومن كتفيه في يأس، غير أنه قد استمد منها العزيمة والقوة. وعندما سارا من جديد، لم يعد سيرهما فراراً يسيطر عليه الفزع..

وأخذ طابع الأرض يتغير بسرعة كلما أخذت في الارتفاع ناحية الجبال. وظهرت نتوءات ضخمة من الجرانيت تتخللها فجوات عميقة

وصار كينو يمشي على الصخور الصلدة التي لا تخلف أثراً قدر استطاعته، قافزاً من نتوء إلى نتوء. كان يعرف أنه كلما تلاشت آثاره عن المتعقبين فإنهم سيدورون هنا وهناك ويضيع وقتهم قبل أن يعثروا على هذه الآثار مرة أخرى. وهكذا كف عن الاتجاه نحو الجبال في خط مستقيم، وأخذ يتحرك في خطوط متعرجة، وأحياناً يعود إلى الجنوب ليترك علامة ما، ثم يتجه بعد ذلك إلى الجبال ويسير مرة أخرى على الصخر العاري. والآن أخذ الممر يرتفع ارتفاعاً شاهقاً ولهذا أخذ يلهث قليلاً أثناء سيره.

وانحدرت الشمس إلى أسفل، تجاه النتوءات الصخرية العارية في الجبال، واتجه كينو شطر فجوة مظلمة ذات ظلال في سلسلة الجبال. ولو كان هناك ماء، فليس من شك في أنه سيجده في تلك البقعة، فقد استطاع أن يلمح، على بعد الشقة، ما يدل على وجود الخضرة، ولو كان هناك ممر يخترق السلسلة الصخرية الملساء فلا شك أنه سيسير بحذاء هذه الفجوة العميقة المظلمة. إن المخاطر تحف هذه المنطقة فقد يفكر فيها المتعقبون أيضاً، غير أن وجود الزجاجة فارغة من الماء لم يدع هذا الاعتبار يسيطر عليه. وأخذت الشمس تنحدر نحو الأفق وكينو وجوانا يجاهدان، وقد نال منهما التعب، ويصعدان المنحدر الشاهق متجهين إلى الفجوة.

وهناك، في الجبال ذات الصخر الرمادي وأسفل القمة العابسة كان النبع يتفجر بمائه من خلال صدع في الصخرة. وكان هذا النبع يستمد

ماءه في الصيف من ثلوج تحفظها الظلال من الذوبان، ومن حين لآخر كان هذا النبع يموت فلا تظهر في القاع غير الصخور العارية والعشب الجاف. غير أنه كان يتفجر في غالب الأحيان: بارداً، رائقاً، حلواً. وعندما تسقط مياه غزيرة يستحيل هذا النبع إلى نهر فياض يرسل عموداً من الماء المزيد ينحدر على فجوة الجبل، غير أنه كان في أغلب الأحوال نبعاً صغيراً ضعيفاً. كانت مياه تتفجر وتهبط في بركة صغيرة، ثم تنحدر المياه مائة قدم لتهبط في بركة أخرى، وتفيض هذه البركة الأخيرة بمياهها فتسقط، وهكذا دواليك، إلى أن سقط فوق منحدر سرعان ما امتصه الهواء العطشان، وتتطاير رذاذه أن يختفي الماء نهائياً. وحينئذٍ لا تعثر له على أي أثر.. كان الماء كلما سقط فوق منحدر، سرعان ما امتص الهواء العطشان، وتتطاير رذاذه من القنوات إلى النبت الجاف. وتعودت الحيوانات أن تقطع الأميال تتشرب من القنوات الصغيرة، كان الكل يجيء ليشرب: قطعان الغنم الوحشي والغزلان، والفئران. أما الطيور التي تقضي سحابة يومها في أرض الشجيرات فكانت تجيء ليلاً إلى القنوات الصغيرة التي كانت تشبه درجات السلم في انحدارها من فجوة الجبل. وعلى جانب هذا المجرى الصغير كانت ممالك النباتات تنمو أينما كان هناك تربة كافية تتعمق فيها الجذور.. عنب وحشي ونخيل صغير، أشجار شعر البنات والباميا وعشب السهول الطويل وقد برزت من أوراقه المدببة عصى كثيفة. وفي القنوات عاشت ضفادع وأسماك، بينما أخذت ديدان الماء تزحف عند القاع. وكل شيء يحب الماء يهرع

إلى هذه الأماكن القليلة الضحلة. وهنا كانت القطط تأتي بضحاياها وتلقي بالريش، وتلعق الماء بأسنانها الدموية. كانت القنوات الصغيرة مرتعاً للحياة بسبب وجود الماء، وكانت مرتعاً لسفك الدماء بسبب وجود الماء.. أيضاً.

كانت هناك درجة واطئة في صورة رقعة من الصخر والرمال، وعند هذه الدرجة يتجمع ماء الجدول قبل أن يتساقط مسافة مائة قدم ويختفي في الصحراء الزاخرة بالشجيرات. لم يكن يسقط في القناة سوى خيط رفيع من الماء، غير أنه كان كافياً لجعل القناة مملوءة بالماء دائماً، وجعل نباتات السرخس خضراء على الدوام أسفل الصخرة، وتسلق الجبل الصخري عنب وحشي، ووجدت كل أنواع النبات الصغير ملاذها هناك. وكانت الفيضانات قد خلفت شاطئاً رملياً صغيرة تنساب القناة خلاله. ونمت في الرمال المبتلة نباتات الكارسون المائي ذات اللون الأخضر الزاهي. أما الحيوانات التي جاءت من أجل الشرب والقنص فقد تركت على الشاطئ – بأرجلها – آثارها.

كانت الشمس قد غادرت الجبال الصخرية عندما أخذ كينو وجوانا يحاولان، جاهدين، تسلق المنحدر الشاهق المتكسر، وأخيراً وصلا إلى الماء. وصار في مقدورهما عند هذه الدرجة – أن يعبرا ببصرهما تلك الصحراء التي أحرقتها الشمس إلى أن يشاهدا من بعيد الخليج الأزرق.

أقبلا على القناة وقد نال منهما التعب، وسقطت جوانا على ركبتيها

وغسلت وجه كويوتيتو أولاً ثم ملأت زجاجتها وأعطته جرعة ماء. وكان الطفل متعباً وعنيداً، وكان يبكي في صوت خافت، إلى أن أعطته جوانا ثديها، وحينئذٍ صدرت من فمه أصوات تنم عن الرضى وهو منكفء على صدرها. وأخذ كينو يشرب من ماء القناة بنهم، واستمر يشرب لفترة طويلة، وبعد ذلك تمدد لحظة بالقرب من الماء وأراح جميع عضلاته، وراقب جوانا وهي ترضع الطفل، ثم نهض قائماً واتجه إلى حافة الدرجة حيث ينحدر الماء، وأخذ يراقب الأفق بدقة، واستقرت عيناه على نقطة في الأفق ووقف متصلباً. هناك، في أسفل المنحدر استطاع أن يرى الرجلين الذين يقتفيان الأثر، لم يكونا أكثر من نقطتين أو نملتين مهرولتين، بينما سارت وراءهما نملة أكبر منهما.

واستدارت جوانا لتنظر نحوه ولمحت ظهره وهو يتصلب. وجاء سؤالها في هدوء "على أي بعد؟"

وقال كينو "عندما يحل المساء يكونون هنا". ورفع ناظريه إلى علو الصخرة الشاهق حيث ينحدر الماء، وقال "يجب أن تتجه غرباً" وأخذت عيناه تتفحصان الكتف الصخري الماثل وراء الفجوة الصخرية.

وعلى ارتفاع ثلاثين قدماً عند الكتف الرمادي لمح سلسلة من الكهوف الصغيرة التي جاءت نتيجة التعرية. وخلع نعليه وتسلق الصخرة متجهاً نحوها وقد تشبثت أطراف قدميه بالصخرة العارية. وأخذ يفحص هذه الكهوف الصغيرة. لم تكن كهوفاً عميقة، مجرد عدة أقدام، كانت

أشبه بفجوات صنعتها الرياح، غير أنها كانت منحدرة إلى الداخل وإلى الخلف انحداراً خفيفاً. وزحت كينو إلى أكبر هذه الكهوف وتمدد بداخله، واكتشف أن أحداً لن يراه من الخارج، وسرعان ما عاد إلى جوانا.

ودون أي اعتراض من جانبها ملأت زجاجة الماء حتى حافتها، ثم ساعدها كينو على الصعود إلى الكهف الضحل وأحضر الطعام وأوصله إليها. وجلست جوانا عند مدخل الباب ترقبه. واكتشفت أنه لم يحاول محو أثارهما الموجودة على الرمال. وبدلاً من ذلك تسلق الصخرة المخضوضرة بجانب الماء، وأخذ يتشبث بالسرخس والعنب الوحشي أثناء تسلقه، وبعد أن قطع مائة قدم في طريقه إلى الدرجة الثانية – هبط مرة أخرى، وأخذ يمعن النظر في الكتف الصخري، مصوباً عينيه نحو الكهف ليتأكد من عدم وجود أثر لممر. وأخيراً صعد، وزحف حتى دخل الكهف وجلس بجانب جوانا.

وقال "عندما يصعدون، سنتسلل نحن بعيداً، وننحدر إلى الأراضي الواطئة مرة أخرى. كل ما أخشاه أن يبكي الطفل. يجب أن تحولي بينه وبين البكاء".

وقالت "لن يبك" ورفعت وجه الصبي نحو وجهها وحدقت في عينيه، ورد على نظراتها بنظرة وقورة.

وقالت "إنه يعرف".

والآن استقر كينو عند مدخل الكهف، وقد أراح ذقنه فوق ذراعيه

المتشابكين، وأخذ يرقب الظل الأزرق للجبل وهو ينحسر عن الغاية الكثيفة أسفل الكهف إلى أن وصل هذا الظل إلى الخليج، وخيم الظل على المنطقة بلونه الغروبي.

مضى على قصاصي الأثر وقت طويل ولم يظهروا، ويبدو أنهم تعبوا في اقتفاء الأثر الذي تركه كينو. وعندما وصلوا أخيراً إلى القناة كان الليل قد أرخى سدوله، وكانوا جميعاً مترجلين، فالحصان لا يستطيع أن يصعد المنحدر الأخير الشاهق. والذي ينظر إليهم من عل يرى صوراً نحيفة في ظلمة المساء. أخذ الرجلان يهرولان هنا وهناك على الشاطئ الصغير، وقبل أن يشربوا لمحوا آثار كينو الصاعدة على الصخرة. أما الرجل الذي يحمل البندقية فقد جلس على الأرض ليستريح، وجلس الرجلان القرفصاء بالقرب منه، وفي الظلام أخذت أطراف سجائرهم تتوهج وتخبو، وبعد ذلك استطاع كينو أن يلمحهم وهم يأكلون، وتناهت إلى سمعه همهمات أصواتهم.

ثم خيم الظلام، كان ظلاماً كالحاً دامساً في فجوة الجبل، واقتربت الحيوانات التي تعودت على شرب الماء من القناة فشمت رائحة بشر فأسرعت مبتعدة واختفت في أعماق الظلام.

وسمع همهمة وراءه، كانت جوانا تهمس "كويوتيتو". كانت تناشده أن يظل هادئاً. وسمع كينو صوت الصبي وهو يبكي بكاءً خافتاً، وعرف من صوته المكتوم أن جوانا غطت رأسه بدثارها.

وعند شاطئ القناة توهج عود ثقاب، وعلى ضوئه الخاطف عرف

كينو أن الرجلين قد ناما وتكوما كالكلاب، بينما جلس الرجل الثالث للحراسة وعلى ضوء عود الثقاب لمح كينو بريق البندقية. وانطفأ عود الثقاب، غير أنه ترك صورة منطبعة في عيني كينو. إنه يستطيع أن يرى هذه الصورة: ويرى وضع كل رجل: اثنان متكومان وثالث جلس القرفصاء على الرمل وقد وضع البندقية بين ركبتيه.

وتحرك كينو في هدوء متجهاً إلى الكهف. وكانت عينا جوانا شرارتين تعكسان نجماً عند الأفق. وزحف كينو في هدوء واقترب منها وقرب شفتيه من خدها.

وقال "ثمة طريق للخلاص".

"ولكنهم سيقتلونك".

وقال كينو "إذا وصلت أولاً إلى الرجل الذي يحمل البندقية يجب أن أصل إليه أولاً – أصبح كل شيء على ما يرام. هناك اثنان نائمان". وتسللت يدها من تحت دثارها وأمسكت بذراعه "سيلمحون ثوبك الأبيض في ضوء النجوم".

وقال "لا. ويجب أيضاً أن أذهب قبل أن يشرق القمر".

وأخذ يبحث جاهداً عن كلمة رقيقة، غير أنه فشل. وقال "إذا قتلوني امكثي في مكانك هادئة. وعندما يرحلون اتجهي إلى لوريتو"

واختلجت يدها وهي تمسك بمعصمه.

وقال "ليس هناك خيار. إنه الحل الوحيد. إنهم سيكتشفوننا في الصباح".

وارتجف صوتها قليلاً، وقالت "اذهب في رعاية الله".

وحملق فيها عن قرب واستطاع أن يرى عينيها الواسعتين. وتعثرت يده الممتدة ووصلت إلى الطفل، ومضت لحظة وهو يضع راحة يده فوق رأس كويوتيتو. ثم رفع كينو يده ولمس خد جوانا وكتمت أنفاسها.

وعند مدخل الكهف، وعلى ضوء السماء خارج الكهف، لمحت جوانا كينو وهو يخلع ملابسه البيضاء، فبالرغم من أنها ملابس قذرة مهلهلة إلا أنها قد تتضح في عتمة الليل. كانت بشرته البنية اللون خير وقاء له. ورأته وهو يعلق الحبل الملفوف حول عنقه في مقبض السكين الكبير، وهكذا صار السكين معلقاً أمامه، وترك يديه حرتين، ولم يرجع إليها. ومضت لحظة وجسده أسود عند مدخل الكهف، متكوم ساكن، ثم رحل.

واتجهت جوانا إلى مدخل الكهف ونظرت إلى الخارج. كانت تحملق من فجوة الجبل كما يحملق البوم، ونام الطفل تحت العباءة المعلقة على ظهرها وقد أمال صفحة وجهه على رقبتها وكتفها، وكانت تحس بأنفاسه الدافئة تلفح بشرتها، وتمتمت بالصلاة والتعاويذ، ونادت العذراء، واستعاذت في صلاتها من كل ما هو أسود غير إنساني.

وعندما نظرت خارج الكهف كانت ظلمة الليل قد خفت حدتها، وعند الشرق كان هناك ضوء في السماء، على مقربة من الأفق الذي سيطلع منه القمر. وعندما نظرت إلى أسفل استطاعت أن تلمح سيجارة الرجل الذي جلس يحرس.

وهبط كينو على الكتف الصخري الناعم كما لو كان سحلية بطيئة. وكان قد أدار الحبل المعلق على العنق لكي يصبح السكين الكبير معلقاً خلفه فلا يحتك بالصخور أمامه. كانت أصابعه الممتدة تتشبث بالجبل، أما أطراف قدميه العاريتين فكانت تعتمد على اتصالها بالصخور، بل ولقد نام بصدره على الحجر حتى لا ينزلق ذلك لأن أي صوت، وأي ذرة تتدحرج أو تنهيدة تتصاعد أو جسد ينزلق على الصخر، قد يوقظ الذين يراقبون أسفل الجبل. إن أي صوت لا يتصل بالليل قد يجعلهم على أهبة الاستعداد، بيد أن الليل لم يكن صامتاً، فلقد أخذت الضفادع الصغيرة– التي تعيش على الأشجار بالقرب من المجرى – تشقشق مثل العصافير ورددت فجوة الجبل صوت حشرات الزير الذي يرن عالياً، وكانت موسيقى كينو ترن في رأسه، موسيقى العدو، خافتة نابضة، نعسانة بعض الشيء غير أن أغنية الأسرة أصبحت عنيفة، حادة، وحشية، مثل أنثى البيومة المكشرة عن أنيابها. إن أغنية الأسرة حية الآن، وها هي تدفعه إلى أسفل، ليلقى العدو الأسود. وبدا وكأن الزير(*) – ذو الصوت الأجش – قد التقط لحن الأغنية، أما ضفادع الأشجار فأخذت تردد بعض مقاطعها.

وكينو قد أخذ يزحف في هدوء كالظل، منحدراً على صفحة الجبل الناعمة. تحركت قدمه العارية عدة بوصات، ولمست أصابع القدم الصخرة وتشبثت بها، ثم تحركت القدم الأخرى عدة بوصات، ثم امتدت

(*) نوع من الحشرات لها أجنحة كبيرة شفافة وتعيش مع الأشجار والشجيرات.

راحة اليد إلى الأمام، ثم امتدت الراحة الأخرى، إلى أن تحرك الجسد كله، وكأنه لا يتحرك. وكان فم كينو مفتوحاً حتى لا يصدر أي صوت حتى من أنفاسه، فلقد كان يعرف أنه ليس بمنأى عن الأنظار، ولو أحس الرجل الساهر بحركة وقطع المسافة السوداء الممتدة عند الصخرة – وهي جسد كينو – لاستطاع أن يراه. يجب على كينو أن يتحرك ببطء كبير، حتى لا يجتذب عيني الحارس. ومر وقت طويل قبل أن يصل إلى القاع، ويتكوم وراء نخلة صغيرة. ودوي قلبه في صدره كما تدوي الرعود، وبلل العرق يديه ووجهه. وربض في مكانه، واجتذب أنفاساً عميقة، بطيئة، طويلة لكي تهدأ ثائرته.

ليس بينه وبين العدو الآن إلا عشرين قدماً، وها هو ذا يحاول أن يتذكر صورة للبقعة التي تفصله عن العدو. هل كانت هناك أية صخرة قد تجعله يتعثر وهو يقفز؟ أخذ يدلك رجليه حتى لا تتشنجان، واكتشف أن عضلاته ترتج من أثر التوتر الذي استمر طويلاً والآن سيشرق القمر بعض لحظات قلائل، وعليه أن يهاجم قبل أن يشرق القمر. واستطاع أن يلمح خطوط الرجل الساهر، غير أنه لم يستطع رؤية الرجلين النائمين عليه أن يصيد هذا الرجل – عليه أن يصيده بسرعة ودون ما تردد. وفي هدوء جذب الحبل المعلق على كتفه وخلص مقبض السكين الكبير من الحلقة.

فات الأوان! إذ بينما هو ينهض من جلسته تسلل طرف القمر الفضي إلى حافة الأفق الشرقي، وغاص كينو مرة أخرى وراء شجيرته.

كان قمراً عجوزاً مهلهلاً، غير أنه سكب ضوءاً شديداً وألقى بظلال حادة على فجوة الجبل. وها هو كينو يلمح شبح الرجل الجالس فوق الشاطئ الممتد عند القناة، وحملق الرجل الساهر في القمر ملء عينيه، ثم أشعل سيجارة أخرى. وأضاء عود الثقاب وجهه الأسمر لحظة. لا مكان للانتظار الآن، يجب أن يقفز كينو حين يدير الرجل رأسه. وصارت رجلاه متوترتين مثل زنبرك ملفوف.

وفجأة سمع بكاء خافتاً قصيراً آتياً من أعلى الجبل. وأدار الرجل الجالس رأسه ليصيخ السمع، ثم هب واقفاً، وتململ أحد النائمين فوق الأرض، واستيقظ، وسأل في هدوء "ما الخبر؟"

وقال الرجل الساهر "لست أدري. كان الصوت أشبه ببكاء، أشبه بصوت بشري.. بصوت طفل"

وقال الرجل الذي كان نائماً "ليس في مقدورك أن تتأكد. ربما كانت ذئبه تلد: سمعت مرة ذئباً وليداً يبكي كالطفل".

وانهمرت قطرات العرق على جبهة كينو وسقطت في عينيه وأحرقتهما. ورن البكاء مرة أخرى، وتطلع الرجل الساهر إلى صفحة الجبل وصوب ناظريه إلى الكهف المظلم.

وقال "ربما كان ذئباً". وسمع كينو صوت قرقعة خشنة والرجل يحشو بندقيته.

وكان كينو على وشك الانقضاض عندما دوى صوت البندقية

وارتسمت في ناظريه صورة العيار الناري. وتأرجح سكينه الكبير، وأخذ يقضم به ويقضم، وانغرز السكين في العنق وتغلغل في الصدر، واستحال كينو إلى آلة مخيفة. وعندما تخلص من سكينه، أمسك بالبندقية. استحال إلى آلة، بقوته، وحركته، وسرعته. واستدار وهشم رأس الرجل الجالس كما لو كان ثمرة بطيخ. وهرول الرجل الثالث مبتعداً وكأنه سرطان بحري، وغاص في القناة ثم بدأ يتسلق الصخور في جنون ويصعد إلى الصخرة التي ينساب منها الماء فوقه، وأخذ يتشبث – بيديه ورجليه– في أوراق العنب الوحشي المتكاثفة، وكان يصيح ويتمتم وهو يحاول الصعود. بيد أن كينو قد استحال إلى قطعة من الصلب، باردة مميتة. وتعمد نبذ رافعة البندقية، ثم رفعها، وصوبها في أحكام، وأطلق النار، ورأى عدوه الثالث وهو يسقط متعثرة في القناة، واتجه كينو إلى الماء. وفي ضوء القمر استطاع أن يلمح العينين المجنونتين المذعورتين، وصوب كينو إلى ما بين العينين، وأطلق النار.

ثم وقف كينو ذاهلاً. هناك شيء كريه، هناك إشارة تحاول جاهدة أن تجد طريقها إلى عقله، والآن لقد صمتت الأشجار، والضفادع، وحشرات الزير. وفجأة تخلص عقل كينو من أفكاره الدموية، وعرف الصوت – صوت ذلك البكاء المجنون، الصارخ ذي الأنين، الصاعد من الكهف الصغير عند صفحة الجبل الصخري –كان بكاء الموت.

* * *

كل من كان في لاباز يذكر كيف عادت الأسرة، وربما كان هناك، من كبار السن، من شاهدوا العودة، ومع ذلك فإن الذين لم يشاهدوا وإنما سمعوا من آبائهم أو أجدادهم يذكرونها جيداً. لقد كانت حادثة تعرضوا لها جميعاً.

كان النهار الذهبي على وشك الأفول عندما هرول الصبية الصغار نحو طرقات المدينة وأشاعوا نبأ رجوع كينو وجوانا. وأسرع الجميع ليشاهدوهما. كانت الشمس متجهة في ذلك الحين إلى الجبال الغربية، وكانت الظلال الملقاة على الأرض طويلة وربما كان هذا هو الذي أثر على الذين شاهدوهما تأثيراً عميقاً.

أقبل الاثنان من الطريق الريفي الذي حفرت فيها العربات عجلاتها، ودخلا المدينة، لم يكونا يسيران في طابور واحد كما تعودا: كينو في المقدمة وجوانا وراءه، وإنما سارا جنباً إلى جنب، كانت الشمس وراءهما، وظلالهما الطويلة تختال أمامهما، وبدا وكأنهما يحملان معهما برجين من السواد. علق كينو على ذراعيه بندقية، بينما حملت جوانا دثارها على كتفها كما لو كان جوالاً. وداخل الدثار كومة صغيرة، ثقيلة، رخوة. وكانت هناك، في الدثار، غضون صنعها دم جاف، وتأرجحت الكومة قليلاً أثناء سيرها. كان وجهها صارماً، مجعداً، يابساً من جراء التعب، ومن جراء مكافحتها الصلبة للتعب. أما عيناها الواسعتان فكانتا تحملقان إلى الداخل، إلى داخلها هي. كانت بعيدة بعد السماء. وكانت

شفتا كينو مزمومتين، وفكاه متوترين، ويقول الناس أنه كان يحمل الرعب في جعبته، وأنه كان في خطورة العاصفة الجامحة. ويقول الناس أنه بدا على الاثنين وكأنهما بعيدين كل البعد عن تجارب البشر، وأن الاثنين عبرا الألم ووقفا عند ضفته الأخرى، وأن شيئاً من الوقاية السحرية كان يلفهما. والذين اندفعوا لمشاهدتهما تراجعوا، وأفسحوا لهما الطريق ولم يحاولوا التحدث معهما.

مشى كينو وجوانا في المدينة، وكان المدينة ليست موجودة. لم تطرف عيونهما إلى اليمين أو إلى الشمال، ولم تتجه إلى أعلا أو إلى أسفل، وإنما أخذا يحملقان ناحية الأمام. كانت أقدامهما – وهما يتحركان – تهتز اهتزازاً خفيفاً، وكأنهما أقدام عرائس خشبية متقنة. وكانا يحملان في جعبتهما صروحاً من الخوف الأسود. وأثناء سيرهما في مدينة الحجارة والجبس، أخذ السماسرة يحملقون من وراء النوافذ ذات القضبان، بينما اختلس الخدم النظرات من فرجات البوابات، وأخفت الأمهات وجوه أطفالهن في أرديتهن وسار كينو وجوانا، جنباً إلى جنب، في طرقات المدينة المصنوعة من الحجر والجبس، ثم سارا بين المنازل المصنوعة من أغصان الشجيرات، وتراجع الجيران في وقفتهم، وتنحوا لهما وأفسحوا لهما الطريق. ورفع جوان توماس يده محيياً، ولم يتفوه بالتحية، وترك يده لحظة مرفوعة في الهواء، حائرة.

وفي أذني كينو، ترددت أغنية الأسرة عنيفة كالصراخ. كان لحناً

مرعباً. ولقد استحالت أغنيته إلى صيحة قتال، وسارا في تثاقل وتركا المربع المحترق وراءهما – مكان منزلهما القديم – دون أن يلتفتا إليه. وابتعدا عن الشجيرات التي تمتد على الشاطئ واتجها نحو الساحل، إلى الماء. ولم ينظرا إلى قارب كينو المحترق.

وعندما وصلا إلى حافة الماء توقفا، واتجها بناظريهما إلى الخليج. ثم وضع كينو البندقية على الأرض، وتسللت يده إلى طيات ملابسه، وأمسك باللؤلؤة العظيمة في يده. وحملق في سطحها، كان سطحاً رمادياً متقيحاً. وعلى السطح حملقت وجوه شريرة في عينيه، ورأى في السطح ضوء حريق. ورأى في السطح عيني الرجل المجنونتين وقد رقد في القناة. وفي السطح رأى كويوتيتو راقداً من الكهف الصغير وقد طارت قمة رأسه. وكانت اللؤلؤة قبيحة، كانت رمادية مثل نبت مشئوم. وسمع كينو موسيقى اللؤلؤة، مجنونة مشوهة. واهتزت يد كينو قليلاً، ثم أتجه في بطء إلى جوانا ولوح لها باللؤلؤة. كانت تقف بجانبه، وما زالت تحمل الربطة الميتة فوق كتفها. وحدقت لحظة في اللؤلؤة ثم نظرت في عيني كينو وقالت في صوت هادئ: "لا. بل أنت".

ورفع كينو ذراعه وأمالها إلى الوراء، ثم قذف باللؤلؤة بكل ما أوتي من قوة، وراقبها كينو وجوانا وهي تختفي، راقبها وهي تلتمع وتتلألأ في ضوء الشمس الغاربة. ولمحا رذاذ الماء الذي تطاير من بعيد، وظلا يرقبان المكان – جنباً إلى جنب – فترة طويلة.

واستقرت اللؤلؤة في الماء الأخضر الحلو، وهبطت إلى الأعماق. ونادت أغصان العشب ملوحة، وأومأت إليها، وكانت الأضواء المنبعثة من سطحها خضراء جميلة. واستقرت اللؤلؤة في القاع الرملي بين النباتات الشبيهة بالسرخس. ومن فوق، كان سطح الماء مرآة خضراء. ورقدت اللؤلؤة في قاع البحر، وأقبل سرطان بحري مهرولاً، ورفع سحابة صغيرة من الرمال، وعندما انقشعت السحابة كانت اللؤلؤة قد اختفت.

واستحالت موسيقى اللؤلؤة إلى همس، ثم استحال الهمس إلى لا شيء.

الفهرس